سِلْسِلَةُ الدِّرَاسَاتِ العَقَائِدِيَّةِ ٥

الإمَامَة

القِيَادَةُ المَعْصُومَة

د. محمد محمود مرتضى

مركز براثا للدراسات والبحوث
Baratha Center for Studies and Research

الإِمَامَةُ: القِيَادَةُ المَعْصُوْمَةُ

د. محمّد محمود مرتضى

◆ رقم الطبعة:
الأولى

◆ تاريخ الطبعة:
٢٠٢٥م - ١٤٤٦هـ

◆ مكان الطبعة:
بيروت - بغداد

الآراء المطروحة لا تعبر عن رأي المركز بالضرورة

© جميع الحقوق محفوظة للمركز

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

Baratha Center for Studies and Research

www.barathacenter.com

barathacenter@gmail.com

سِلْسِلَةُ الدِّرَاسَاتِ العَقَائِدِيَّةِ ٥

الإمَامَة

القِيَادَةُ المَعْصُومَة

د. محمّد محمود مرتضى

مَركز بَراثا للدِّراسَاتِ وَالبُحوث
بيروت - بغداد

سِلْسِلَةُ الدِّرَاسَاتِ العَقَائِدِيّة

ليست العقائد مجموعة من الأفكار أو النظريات العقلية، بل هي منظومة تعمل لتشكيل وجود الإنسان في بُعده المعنوي وصورته المثالية، وتصوغ سلوكه العملي ومَلكاته الأخلاقية من خلال بنيان عقلي مُحكم، ومن ثَمّ تُشكّل هويّته الفردية والاجتماعية. والعقائد الحقّة شرطٌ للحياة الطيبة التي تعني الخلو من الخبائث وإن كانت مليئة بالتعب؛ يقول -تعالى-: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾، وهي أيضاً -أي العقائد- شرط ليرتفع العمل الصالح في مراتب الوجود ويُحدث أثره التكويني؛ يقول -تعالى-: ﴿**... إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ...**﴾. فالأبحاث العقائديّة هي العنصر المحوريّ في بناء الإيمان، والخير كلّه يبدأ من الإيمان. على أنّ هذا الإيمان لا يحصل بمجرّد امتلاك الاعتقاد السّليم، بل إنّه عمليّة تفاعليّة تجري في القلب من خلال قدرة المفكّر على اكتشاف تجلّيات العقائد الحقّة في واقعه الاجتماعيّ، وفي تجاربه الحياتيّة، وفي العالم الكيانيّ الكبير. ونظراً لأهمية البعد العقائدي في حياة الإنسان، تأتي سلسلة (الدراسات العقائدية) لتقدم للقارئ كتابات حول نظريات المعرفة والرؤية الكونية الإسلامية للوجود والحياة، ونتناول فيها العقائد الحقّة مع الإشارة لموارد التهديد العقائدي من الأفكار الاستشراقية والحداثوية؛ إذ لا يخفى أنّه كلما تسامت وتكاملت المعرفة تصاعد الثواب والقرب إلى الله، فبعض المستويات العالية والرفيعة في الدين شرطها الأساسي هي المعرفة والعلم ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾، فهذه الخشية ترتبت على العلم، وهكذا كلما ترقى المكلف في المعرفة يصل إلى مستويات إيمانية أعلى، وكما ورد عن أمير المؤمنين: «.. إلهي ما عبدتك خوفا من عقابك ولا طمعا في ثوابك، ولكن وجدتك أهل للعبادة فعبدتك». لذا، نحاول من خلال هذه السلسلة ترسيخ مفهوم استقلالية العقل والفكر، والتوفّر على المقاييس الصّحيحة والمدروسة والمعتمدة على البديهيّات الأوّلية، والعناية بالاستعداد لإدراك المفاهيم الإسلامية الرّفيعة، وذلك بأسلوبٍ سهلٍ يقترب من أذهان الشّباب.

مٌقدّمة

الإمامةُ ركنٌ أساسٌ في الإسلام، ولئن حَدثَ اختلافٌ فيها، بين مدرستي الخلافة والإمامة، فقد بقي الطريق الواصل بينهما مفتوحًا بلا قيود عقديّة أو معرفيّة، أو حتى فقهيّة عميقة مائزة ومفرِّقة. فليست الإمامة مظهرًا للحكم السياسي فحسب، وإنما هي - قبل هذا - استمرار للنبوة في حركة التاريخ، تنطلق – في وعي الشيعة لها - من ضرورة وجود خليفة للنبيّ الكريم(ص) في امتداد الحياة الرساليّة، من خلال تعيينه والتنصيص عليه، فيقوم بمهامه، ويستكمل وظيفته في الدعوة إلى الدين، والحرصِ على تعاليمه، والحفاظ على قيمه، وتطبيق أحكامه، وصيانة حقوق الناس، والتّصدّي لمسؤوليات القضاء و...؛ إذ يقوم الإمام بهذه المهام وكأنَّ الرسولَ الكريم(ص) موجود، ولكن بلا وحي من الله – تعالى -. وهذا ما كانت عليه سيرة الإمام عليّ(ع) والأئمّة الأطهار المعصومين من بعده(ع) وصولاً للإمام المهديّ المنتظر(عج) الذي هو بمثابة النور الذي يتطلّع إليه كلّ البشر، خاصّة المؤمنين منهم بقيم العدل والإنسانيّة؛ حيثُ سيجسّدُ – كإمام معصومٍ مفترض الطاعة- فكرة الخلاصِ، وتمثُّل مبادئ الحق والعدل والإنسانيّة بأكمل معالمها ومعانيها التي تقوم على مواجهة

الفساد والظلم والتجبر وإسقاطهم - فكراً وعملاً -، والعمل مع الخيّرين والمُخلِصين لبناء مجتمعات العدل والكرامة وإرساء التعايش الإنسانيّ بين كلّ الناس والأمم، بما يجسّد – على مستوى الواقع - غاية الرسالات، وهدف النبوّات في كل حركة التاريخ البشريّ منذ فجر التاريخ والخليقة إلى أنْ يرثَ اللهُ تعالى - من خلال الإمام المهديّ(عج) - الأرضَ ومَنْ عليها وماْ عليها، يقول – تعالى -: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ**﴾[الأنبياء: ١٠٥]، ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾[القصص: ٥]، ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ..**﴾[النور: ٥٥]

الفَصْلُ الأُوَّلُ: أَهَمِّيَّةُ قَضِيَّةِ الإِمَامَةِ

الإِمَامَةُ فِيْ مَعَانِيْهَا وَمَرَاتِبِهَا

المَبْحَثُ الأَوَّلُ:
الإِمَامِةُ مَا بَيْنَ إِفْرَاطٍ وَتَفْرِيْطٍ

تُعدُّ الإمامةُ من أصولِ الدّين في المذهبِ الشيعيّ[١]، بينما هي ليست كذلك في باقي المذاهبِ الإسلاميَّةِ، وهي قضيَّةٌ مُهمةٌ وحيويةٌ للنقاش، وقد أثارتْ –وما زالت– في أذهان بعض الناس إشكالياتٍ وانتقاداتٍ عديدةً، منها:

الانتقادُ الأَوَّلُ- إظهَارُ الجوَانبَ السَّلبيَّةِ وَزعزعَةُ الإيمَان بالأُصُول:

يبيِّنُ أصحابُ هذا الاتجاهِ الانتقاديّ –إذا صح التعبي- أَنَّ تاريخَ أيِّ أُمَّة جزءٌ من حياتها التي تتزيَّنُ بها، وتفخر بما فيه من مواقع فكريةٍ، خاصةً على صعيدِ إبراز ما فيه من إيجابياتٍ ونقاطِ قُوةٍ مشرقة، سواء في أفكارِها وعقائدِها، أو في تحولاتِها وحوادثها. ويَعتبر أصحابُ هذا الاتجاه أنَّه من المفروض – في تاريخنا الإسلاميّ- التركيز على هذا الجانبِ المضيء،

١ - يعتبر الشيعة أنَّ أصولَ الدين ثلاثة: التوحيد والنبوة والمعاد، ويتفرع عن التوحيد العدل، فيما تتفرع الإمامة عن النبوة؛ ويعتبر الشيعة أنَّ إنكار الإمامة مُخرج عن المذهب لا الدين إلا في حالة ثبوت نص قطعي عن النبي يتعلق بالإمامة عند المنكر لها، فيخرج عن الدين لكونه تكذيبًا للنبي.

وعدم التعلُّق بخلافاتِ التَّاريخِ وإشكاليَّاتِه، خاصةً تلك التي هي موضع تباين واختلاف بين مذاهب المسلمين، ومنها قضية الإمامة والخلافة (خلافة الرسول الكريم)، وما وقع بعدها من اختلافات وتباينات وصراعات على موضوعِ إمامة المسلمين، الأمرُ الذي يمكن أنْ يؤديَ حاليًا إلى إحداث مزيدٍ من التَّفَرُّق والانقسام بين المسلمين، ويتسبَّبُ بإضعافهم. ولهذا، يجب عدمُ تكرار المقاطع السيئةِ من تاريخنا، وعدم تسليط الضَّوءِ عليها، وتضخيم الحديث فيها.

في جوابنا على هذا الانتقاد، نؤكدُ أنَّ التاريخَ ليس إيجابيًا بالمطلق، ففي تاريخنا -مثل أي تاريخ آخر لأية أمَّة أخرى- هناك الإيجابي والسلبي، ودور المثقَّفِ أو العالِم يَكمُنُ في الإشارة للسلبيات لتلافيها، والإشادة بالإيجابيات لتكريسها، وعملية نقد التاريخ لا يجب أنْ تقتصرَ فقط على إظهار الجوانبَ السلبيةِ فيه ومواطنه، بل يجب الإشادةُ بما هو مشرقٌ فيه، وترسيم مواقعه وحوادثه الإيجابيَّة والاقتناع بها، وإن لم نبنِ معادلةَ النقد بطرفيها معًا، فلا معنى لنقد التاريخ، وما يجري بهذا المعنى هو تحايلٌ على التاريخ وتحريفٌ له.

لقد أوضح لنا كتاب الله في نصوصه، أنَّ الإنسانَ يحتوي في داخله على الخير والشر، على سلبيات وإيجابيات، يقول -عز وجل-: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا**

تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٣٠]؛ حيث يشير -تعالى- إلى حقيقةٍ لطيفةٍ، وهي أنَّ طبيعةَ النَّاسِ ليست خيِّرةً بالمطلق وليست شريرةً بالمطلق، بل فيها من هذا وذاك؛ حيثُ تتساءلُ الملائكةُ باستغرابٍ عن الحكمة الكامنة خلف استخلاف هذا الإنسان «القابل للإفساد» في الأرض؛ لأنّها لم تكنْ تعرف سوى الجهة المظلمة من هذا الموجود، ولكنَّ الله أخبرها «بعد ذلك»: أنّه الأعلمُ بهذا الموجود وما ينطوي عليه من خِصال إيجابيَّة وجمال، تجهلها الملائكة.

إنَّ تاريخنا الإسلاميّ مُمتلئٌ بكثير من مواقع الجمال الفكري والإنساني وتجلياتهما، والحوادث التي تتألق فيها قِيَم هذا الدين، وما فيه من خصال وفضائل إنسانيَّة أصيلة.

نعم، لا شك في وجود سلبياتٍ ومشاهد سوداء، مثل أيّ تاريخٍ آخر، ولكنَّ إيجابياتِ تاريخنا وخيراته أكثر بكثير من سلبياته ونقاطه السوداء.

يُروى في التاريخ: أنَّ رجلاً يهوديًّا وقفَ مع الإمامِ عليّ ، وهو يحاول التقليل من قدر المسلمين لما جرى بينهم في صدر الإسلام من حوادثَ مؤسفةٍ حول الخلافةِ، فقال للإمام: «ما دفنتم نبيّكم حتى اختلفتم فيه!» فأجابه الإمام عليّ قائلاً: «إِنَّمَا اخْتَلَفْنَا عَنْه لَا فِيه، ولَكِنَّكُمْ مَا جَفَّتْ أَرْجُلُكُمْ مِنَ الْبَحْرِ حَتَّى قُلْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ: **﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾**[الأعراف: ١٣٨]»[1].

---

١ - الشريف الرضيّ: نهج البلاغة، الحديث رقم ٣١٧، ص٥٣١.

كانَ انطلاقُ الاختلاف من موضوعٍ الإيمان بأركان الدين، وعلى رأسها: التوحيد والنبوة، وهو اختلافٌ أخذ صِيغةَ الإجابةِ على التساؤل المتعلق بضرورةِ وجودِ شخصٍ معيَّن (خليفة وإمام للمسلمين) ومنصوص عليه في القرآن والسنة النبوية؛ حيث جرت في هذه القضيَّةِ مداولات ونقاشات تاريخية ودينية وفكرية. ومن هنا، يجدر القول: إنَّ دراسةَ التاريخ تستوجبُ عدمَ غضّ النَّظرِ والفكر عن السلبيات التي جرت فيه، أو عن الحُمولات الإيجابيَّةِ التي يختزنها، خاصةً في قضيَّةٍ هي من أصلِ وعمقِ الإسلامِ نفسِه، ولا ريب أنَّ غضَّ الطَّرفِ عن قضيَّةٍ مثلها -الإمامة-، هو في حكم غضّ الطَّرف عن سعادةِ المسلمين[١] .

الانْتِقَادُ الثَّاني- التَّهديدُ المبُاشرُ لقَضيَّةِ الوحدَةِ الإسلاَميَّةِ:

يجري التساؤُلُ -هنا- عن مصيرِ قضيَّةِ الوحدةِ بين المسلمين، وكيف يمُكن بحثها في ظلِّ تعقيداتِ التاريخ وخلافاته؟ خاصةً إنَّه يتم -بين وقت وآخر- استغلالُ الخلافاتِ التاريخيَّةِ بين المسلمين واستثمارها لتعميق الفُرقة والانقسامات بينهم، وإبقائهم متخلِّفين عن قُوى الاستعمار وخاضعين لها. فلماذا هذا الإصرار -كما يقول أتباع هذا الانتقاد- على إعادةِ تسليطِ الضَّوءِ على خلافات المسلمين في الماضي؟!

---

١ - مرتضى مطهّري: الإمامة، ص٢٤-٢٧.

جَوَابُ الاِنتِقَادِ الثَّانِي:

في الواقع، لا يمكن تحقيق التوازن والانسجام المعاصر في طبيعة العلاقات بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم دونَ إزالةِ العقباتِ والعراقيلِ التي تقف في طريق هذا النهج، ولعلَّ من أهمِّها، معالجة الأمراض التاريخية، وعلى رأسها تلك الخلافات المذهبية حول كثيرٍ من القضايا العَقَدِيَّة والفِكريَّة. وهذا لا يعني -بطبيعة الحال- تخلي المذاهب عن قناعاتها وعقائدها وأصولها، وإنَّما البحث عن مشتركات وحدويَّة تأسيسية ضامنة، وبناء مناخات صحية عقلانية سليمة بين مختلف المذاهب.

فعلى صعيد مذهب أهل البيت ﭼ، تُعدُّ الإمامةُ أصلاً مذهبيًّا ثابتًا لا يمكن المساومة عليه، أو التنازل عنه، إرضاءً لأحد، وهو اعتقادٌ دينيٌّ راسخٌ وثابت عندهم.

ولنا في تاريخِ كثيرٍ من أعلام الوحدةِ الإسلاميَّةِ وسيرهم، خير مثال على طريقتهم في التعاطي الجيّدِ والإيجابي مع قضيَّة وحدة المسلمين؛ حيث كانوا يؤكدون على أنَّ المذاهبَ الإسلاميَّةَ – مع كل ما فيها من اختلافاتٍ واجتهاداتٍ فكريةٍ وعَقَديةٍ وعملية- يمكن أن تتوحدَ حول تحديات لا تخصُّ مذهبًا معيَّنًا، بما يستلزم نبذَ الخلافاتِ جانبًا، والعملَ الدائمَ على بناءِ أرضيَّة لتحقيق التفاهم المشترك فيما بينها.

▪ المَبْحَثُ الثَّاني: سِيرَةُ الإِمَامِ عَلِيٍّ عليه السلام كَنَمُوْذَجٍ عَمَلِيٍّ مُجَسِّدٍ لِلوَحْدَةِ

إنَّ من يراجع سيرةَ الإمامِ عليّ عليه السلام، ويتأملُ في أحداثها ووقائعها، يجد بكلِّ سهولة أنَّه عليه السلام كان إنسانًا يفكر بالإسلام الكُلِّي الشامل بعيدًا عن أيَّة حالةٍ ذاتيَّةٍ شخصيَّةٍ، وكان فعلُه الإسلاميّ خالصًا لله -تعالى-، مطابقًا لقولِه. وبالرغم من حرصه على بَيضَةِ الإسلامِ، وإيمانه بأهميَّةِ وحدة المسلمين وعدم تشتُّتِهم، لم يمنعه هذا من الحديث عن حقه في الخلافة.

لقد كان الإمامُ عليّ عليه السلام -في مجال دفاعه عن الإسلام- ساعيًا دومًا للحفاظ على قيم الدين، ناصحًا للخلفاء، ومحاورًا لهم، رغم ما أبدوه له من سياسات المنعِ والإعاقة لحقّه في تَسَنُّمِ مسؤولياتِ الدولةِ والخلافة، في تلك المرحلة التاريخية من حياة الأُمَّةِ. وعلى الرغم من رفضه تَسَنُّمَ المناصب شخصيًّا تحت ظل تلك القيادات، لم يكن يمنع المقرَّبين إليه وأقرُباءه وأنصاره قبولها؛ لأنَّ قبول هؤلاء لا يُنظر إليه على أنّه إمضاءٌ للخلافةِ القائمةِ بأيّ شكلٍ من الأشكال، بل يُدرج في سياق التعاون والانسجام[1].

نعم، كانتْ سيرةُ الإمام عليّ عليه السلام ومنهجُ عملِه أُنموذجًا للوعي

---

١ - راجع: عبد الحميد بن هبة الله (ابن أبي الحديد): شرح نهج البلاغة، ج١٧، ص١٥٢.

والمسؤولية والتفاني في خدمة التَّطلعات الإسلاميّة؛ فقد كان يَصلُ ما يقطعه الآخرون، ويرتق ما يفتقونه. ولقد انتهز (أبو سفيان) الفرصةَ، وأراد أن يستغلَّ رفضَ الإمام عليه السلام ويُحقِّق ثأرَه من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عن طريق وصيّه، متظاهرًا باحترام وصيَّته(ص)، بيدَ أنَّ قلبَ عليّ عليه السلام كان أوعى من أن يُخدع بالخطّ السُفيانيّ، فدفع في صدره ونحّاه عنه مطرودًا[١].

فالإمام وسنّته نصب أعينهم، ولا يُخدعوا بما يُبيّنه أمثال (أبي سفيان) و(حُيَيّ بن أخطب)[٢].

---

١ - جاء ذلك عندما عرض أبو سفيان أن يقوم بمبايعة الإمام عليّ. وهنا، يذكر لنا الشريف الرضيّ خطبةً للإمام لمّا قُبض رسول الله(ص) وخاطبه العباس وأبو سفيان بن حرب في أن يبايعا له بالخلافة، يقول فيها: «أَيُّهَا النَّاسُ شُقُّوا أَمْوَاجَ الْفِتَنِ بِسُفُنِ النَّجَاة، وعَرِّجُوا عَنْ طَرِيقِ الْمُنَافَرَةِ، وضَعُوا تيجَانَ الْمُفَاخَرَةِ، أَفْلَحَ مَنْ نَهَضَ بِجَنَاحٍ أَوَ اسْتَسْلَمَ فَأَرَاحَ، هَذَا مَاءٌ آجِنٌ ولُقْمَةٌ يَغَصبِهَا آكِلُهَا، ومُجْتَنِي الثَّمَرَةِ لِغَيْرِ وَقْتِ إِينَاعِهَا، كَالزَّارِعِ بِغَيْرِ أَرْضِه ...». (راجع: محمد بن الحسين الشريف الرضيّ: نهج البلاغة، الخطبة٥، ص٥٢).

٢ - لقد ذكر الإمام عليّ في أكثر من مرّة ومناسبة أنَّ ما تحمّله في سبيل الحفاظ على وحدة المسلمين والحيلولة دون فرقتهم، كان كثيراً وكبيراً. ومن ذلك قوله: «قد جرت أمور صبرنا فيها، وفي أعيننا القذى، تسليمًا لأمر الله -تعالى- فيما امتحنا به رجاء الثواب على ذلك، وكان الصبر عليها أمثل من أن يتفرّق المسلمون وتُسفك دماؤهم». وفي خطاب آخر، قال: «وأيمُ الله لولا مخافتي الفُرقة بين المسلمين، وأن يعود أكثرهم إلى الكفر وَيَعْورَ الدين، لكُنّا قد غيرّنا ذلك ما استطعناه». (راجع: محمد بن النعمان: الإرشاد، ج١، ص٢٤٦-٢٤٩).

▪ المَبْحَثُ الثَّالِثُ:
مَعَانِي الإِمَامَةِ ـــ القِيَادَةِ السِيَاسِيَّةِ

أَوَّلًا- اِخْتِلَافُ المَذَاهِبِ الإِسْلَامِيَّةِ فِيْ فَهْمِ الإِمَامَةِ:

للإمامةِ أهميَّةٌ بالغةٌ وحيويَّةٌ في الواقع الفكريّ والمجتمعيّ للشّيعةِ؛ حيثُ يمكن القول: إنَّه لا يوازيه أيُّ اهتمامٍ آخر من قِبل هذا المذهبِ الإسلامي أو ذاك؛ باعتبار أنَّ طبيعةَ الاختلاف الكامن في فَهم هذا المفهومِ وإدراكه العَقَدي عندَ فِرَقِ المسلمين؛ حيثُ إنَّ أصولَ الدينِ الشيعيَّةِ هي: التَّوحيدُ والنُّبوَّةُ وَالمَعَادُ فيما العدل يتبع التوحيدَ، والإمامةُ تتفرعُ عن النُبُوَّةِ ؛ أي أنَّ الإمامةَ في نطاق أصولِ الدين.

أمَّا مدرسة الخلافة "السُّنَّة" فهم لا ينفون الإمامةَ، وإنَّمَا عندهم تفسيرٌ لها يختلف عن فَهم مدرسة الإمامةِ وتفسيرها؛ حيثُ إنَّهم لا يعتقدون بوجوبِ جعل الإمامةِ أصلًا أو رُكنًا دينيًّا ثابتًا من أصولِ الدين، بل هي -في نظرهم- من الفروع الدينيَّة.

وهنا، قد يُطرحُ سؤالٌ حولَ أسبابِ هذا التباين وطبيعته في وعي مسألة الإمامة بين فريقين مسلمين؟

وفي الإجابة عنه، يجبُ أنْ نفككَ المصطلح وفق الآتي.

ثَانِيًا- فِيْ مَعْنَىْ الإِمَامَة وَالإِمَام:

يعتقدُ علماءُ الشيعةِ أنَّ مصطلحَ "الإمام"[١] لا يختزن في داخله أيَّ مفهومٍ مقدس، فالإمام هو إنسانٌ يؤتَم به، ويُقتدَى بسلوكه، ويتبعه الناسُ في أفعاله؛ أي أنَّ الإمامَ هو المقتدَى، والمتَّبَع، والمُتقدّم على جماعته التابعة له، سواء أكانَ عادلاً ينهج صراطًا مستقيمًا وسويًّا، أم كان ضالاًّ ينهج طريقًا سيئًا يهوي نحو مهاوي الباطل. وقد استعمل كتابُ الله كلمةَ الإمام، في كلا المجالين والموردين، قال –تعالى-: ﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا**﴾[الأنبياء: ٧٣]، وقال في موقع آخر: ﴿**أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ**﴾[القصص: ٤١]، كما استخدم كلمةً مشابهةً لكلمةِ «الإمام» فيما يخصُّ فرعون، عندما قال: ﴿**يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾[هود: ٩٨].

طبعًا، هناك مواردُ للإمامةِ في مجالاتٍ مفاهيميَّةٍ عديدة، يَعتقد ببعضها أتباع مدرسة الخلافة، وإنْ اختلفوا معنا في الكيفيَّة وفي شخص الإمام.

فالإمامة التي يشتركون بالإيمان بها معنا، ويختلفون في كيفيتها وشكلها وشخص متولّيها، هي التي تَبرزُ بمعنى رئاسة المجتمع، وقد

---

١ - «الإمام: المؤتمّ به إنساناً؛ كأن يُقتدى بقوله أو فعله، أو كتابًا أو غير ذلك، مُحقًّا كان أو مبطلاً، وجمعه أئمة». (راجع: الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص٢٠)، والجوهري، الصحاح، ج٥، ص١٨٦٥. وجاء في لسان العرب: «يُقال إمام القوم، معناه هو المتقدّم لهم، ويكون الإمام رئيسًا؛ كقولك: إمام المسلمين». (انظر: جمال الدين ابن منظور: لسان العرب، ج١٢، ص٢٦).

ذُكرت في كُتُب قدماء المتكلّمين بمثل هذا التّعبير، أو عُبِّرَ عنها بنظائر قريبة إليها. فـ(نصير الدّين الطّوسي) -مثلاً- يُعرِّفُ الإمامةَ في «التّجريد» بأنّها: «رياسة عامّة»[١].

ثَالثًا- الإِمَامَةُ اِسْتِمْرَارٌ لِخَطِّ النُّبُوَّةِ فِيْ حَرَكَةِ الوَعْيِّ وَالمَسْؤُولِيَّةِ:

كانَ الرسول الكريم ﷺ يتحرك في حياته انطلاقًا من طبيعة المهام والمسؤوليات الملقاة على عاتقه؛ حيثُ كانَ يقوم بالآتي:

١- تِبْيَانُ المَفَاهِيمِ وَالأَحكَامِ الدِينِيَّةِ وَإِظهَارُهَا:

يتجسّدُ العُنوان الأولي من عناوين المسؤولية الرسولية للنبي الأكرم ﷺ في كونِه جاء مكرَّمًا بالنُّبوة من الله -عز وجل- وهي مهمة رسالية، ومسؤولية شرعيَّة أدَّاها ﷺ على أكمل وجه في تبيينه للأحكام والتعاليم، يقول -عز وجل-: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾[الحشر: ٧]، وهي تعني أنَّ الرسولَ الكريمَ كان مبيِّناً لما تم الوحي إليه من تعاليم السماء.

٢- التَّصَدِي لمَسْؤُولِيَّاتِ القَضَاءِ:

كانَ منصب القضاءِ من المسؤوليات الأساسيَّةِ التي التزمها وتصدى لها النبيُّ الكريم ﷺ؛ حيثُ كانَ يقضي بين المسلمين ويفصل في

---

١ - مرتضى مطهّري: الإمامة، ص٣٨-٣٩.

خصوماتهم. وهو ليس من المهام والمسؤوليات البسيطة بل هو -في تعاليم الدين- شأنٌ إلهيٌّ يفوض الله -تعالى- به النبيَّ، يقول -عز وجل-: **﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾**[النساء: ٦٥].

٣- الرِّئَاسَةُ العَامَّةُ:

فوَّض الله -تعالى- منصبَ الرئاسةِ إلى النبيِّ الكريمِ في قوله -عز وجل-: **﴿أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾**[النساء: ٥٩]؛ حيثُ كان ﷺ رئيسًا وقائدًا للدولة والمجتمع، وأوجب على الناس أمر إطاعته.

إذًا، هناك ثلاثةُ مجالات، أو شؤون، أو وظائف للنبي الكريم ﷺ هي بحد ذاتِها ثلاثة ضروب للمسؤولية الرساليَّةِ. فمن جهةٍ يتلقى النبي ﷺ الوحي، ويقوم بنقل تعاليم السماء للنَّاسِ، وهذا أمرٌ غيرُ اختياريّ، بل هو شأنٌ إلهيٌّ يلتزم فيه النبيُّ بإبلاغ ما أُمر به من قِبَل الله -تعالى- كأمر الصلاة والصيام مثلاً، ومن الجهةِ الثانيةِ هناك القضاء بين الناس، وهو أمرٌ لا يتعلقُ بالوحي؛ حيث نجد أنَّ النبيَّ يبادرُ لفضّ النزاعات بين الناس عندما يختلفون، وذلك بالاستناد لأحكامِ الشَّريعة.

أمَّا على مستوى المجال أو الوظيفة الثالثة، فإنَّ النبيَّ يتحركُ من موقعه كقائدٍ عام للمجتمع والأُمَّةِ ككل. وهو حقٌّ للنبي فوَّضه -تعالى- به، وعندما يأمرُ بأيِّ شيء -ضمن هذا الموقع القيادي- فهو أمر آتٍ ضمن صلاحيات النبيّ الممنوحة له من قبله -عز وجل-.

وعندما يتدخلُ الوحي في أيَّةِ مسألة تنفيذيَّة عمليةٍ تتعلقُ بصلاحياتِ القيادةِ، فهو تدخُّل طارئ واستثنائي، ولا يمكن أن يتحوّلَ لسلوكٍ مستمر أو قاعدة دائمة.

رَابِعًا- الإِمَامَةُ بِمَعْنَى قِيَادَة المُركَّب الاجْتِمَاعِيّ:

بعد أنْ رحلَ النبيُّ الكريمُ ﷺ بقي مقعدُ قيادةِ الأُمَّة والمجتمع شاغراً. فمن يملأه؟ ومن الضروري أنْ يأتي قائدٌ آخر يستكمل المسيرة؛ لأنَّ المجتمع لا يمكن أن يظلَّ بلا قائد أو رأس يشرف على تدبير شؤونه. وهنا، كانَ السّؤالُ المركزي: مَن الذي يمكنهُ تَسنُّمَ مسؤولية قيادة المجتمع والأمة بعد الرسول الكريم ﷺ؟

في الإجابة، يؤكدُ كل المسلمين على ضرورة وجود القائد الأعلى لإدارة شؤون المجتمع. ولكن، ذهبت الشيعةُ إلى أنَّ النبيَّ الكريمَ ﷺ عيَّنَ بنفسه قبل أن يرحلَ إمامًا وقائدًا للمجتمع، وهو الإمام عليّ عليه السلام، وهو أمرٌ لم تقبل به المذاهبُ الإسلاميَّةُ الأخرى التي رفضت هذا الشكل من التعيين، وذهب أصحابُها إلى أنَّ النَّبيَّ لم يعين أحدًا بعينه، بل جعل أمرَ المسلمين شورى بينهم، لينتخبوا من يخلُف الرسولَ الكريم ﷺ لقيادة الأُمّة.

وهذا يعني أنَّ هناك قبولاً عامًّا من عموم المسلمين بأصلِ فكرةِ الإمامة التي تعني القيادة في أن يكون للمسلمين من يمثّلَهم، ويقودهم، ويدير أمورهم. ولكن، وقع الاختلاف في تحديد الشخص فقط، أي في فكرة

التعيين. أما عند أتباع مدرسة أهل البيت -أي مذهب الشيعة- لا تنحصر في الجانبِ السياسي العملي، وإلاَّ لكانت الإمامة عندهم مجردَ فرعٍ من فروع الدين، مثلما هو الحال عند باقي مذاهب الإسلام، بل هي قضية محورية وجوهرية تتعلق بالجانب المرجعي الديني، وفي كونِ الإمام علي عليه السلام هو وريث النبوة علمًا وفكرًا وروحًا، وهي وراثة تامة كاملة لا يُداخلها أيُّ نقص أو عيب؛ فعليّ عليه السلام هو الأتقى، والأعلمُ، والأجدرُ، والأكفأ، والأشجع من كل صحابة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم؛ ولهذا قام صلى الله عليه وآله وسلم بتعيينه خليفةً له وقائدًا للمسلمين كافَّةً، وإمامًا لهم.

خَامسًا- اِخْتزَالُ الإِمَامَةِ بالحُكْم وَالحُكُومَةِ:

إنَّ اقتصارَ موضوع الإمامة برُمَّته علَى أنَّه أمرٌ يعني فقط القيادة والرئاسة، يدفع باتجاه طرح أسئلة عدة، منها:

السُّؤَالُ الأَوَّلُ: هَل إِنَّ أَمرَ الحُكُومَةِ تَنصِيصِيٌّ أَو اِنتِخَابِيٌّ؟

ما هي الضرورة في أنْ يقومَ الحاكمُ بالنصّ على من سيأتي بعده دون وكالة من الأُمَّةِ والمجتمع؟

في الواقع، يجب أنْ نعلمَ أنَّه يوجد في الإسلام رؤيةٌ. وقانون ينظّم طبيعةَ الحكمِ الإسلامي ويضبطه؛ بحيثُ يكون النبيُّ نفسُه مُلزمًا بتعيين -استنادًا إليه- من سيحكمُ بعده. فليست المسألة مزاجية، خاصة في قضيَّةٍ

بالغةِ الحيوية كهذه القضيةِ المتصلة بحياة الناس ومستقبل الأمة. والحاكمُ الذي ينصُّ عليه النبيّ يُعيِّنُ الذي يليه، ليستمرَّ الأمرُ على هذا المِنوال حتَّى قيام السَّاعة.

وبالتالي، لا يمكن اختزال الإمامة إلى مجرد أنَّها قضيَّةٌ فنّيةٌ إداريةٌ، لا يجب للوحي أنْ يتدخلَ فيها. وحين تُطرح الإمامةُ بمثل هذا التَّصَوُّرِ السّاذَج، وتُختزل بالحكم وحده، عندئذ ستتحلّى نظريَّةُ أهلِ السنَّة بهذا الشأن -من أنّه ليس من حقّ الحاكم تعيين الذي يليه، بل يجب على الأُمَّة أن تنهضَ بذلك وأنَّه حقُّها، وينبغي لأهل الحلّ والعقدِ المبادرة إليه، كما يجب أنْ يتمَّ انتخاب الحاكم وفق أُصول ديمقراطيّة- بجاذبيّةٍ أكبر من نظريّة الشّيعةِ وما يعتقدون به. بيدَ أنَّ المسألةَ ليست بهذه البساطة؛ ذلك أنَّ ما نستفيده من مجموع ما لدى الشيعة من نصوص على خلافةِ الإمام عليّ وسائر الأئمّة عليهم السلام هو فرع لمسألة أخرى، تُعدُّ هي القضيّة الأكثر أهمِّيَّة من المسألة الأولى[1].

السُّؤَالُ الثَّانِي: مَا طَبِيعَةُ الحُكُومَات وَمآلَاتِهَا بَعْدَ الأَئِمَّةِ الاِثْنَيّ عَشَر؟

إذا مَا افترضنا أنَّ الحياةَ وأوضاعَها مشت بعد رحيلِ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

١ - مرتضى مطهّري: الإمامة، ص٦٣-٦٦.

بحسبِ ما أوصى به؛ بحيثُ استلمَ الحكمَ بعده الإمامُ عليٌّ، ومن ثمَّ الإمام الحسن وصولاً إلى الإمامِ المنتظر -محمد بن الحسن- عجّل الله تعالى فرجه الشريف، وإذا ما افترضنا أنَّ الإمامَ الحُجةَ المنتظَرَ استلم الحكمَ بصورةٍ طبيعيَّةٍ من بعد أبيه، ولم يُضطَرَ للغيبة، فإلامَ ستتحول وتصير إليه مسألة القيادة والحكومة بعدئذ؟ هل سيزداد عدد الأئمة؟

ليس بالضرورة، ربما ستُطلُّ على مواقع الحياة قضية أخرى تتمثّل بمسألة الحكم في صيغته العاديّة، أي في الوضع الذي نعيشه هذه الأيام؛ حيث ينتخب الشعب -بنحوٍ وآخر- الحاكم، ويستمرُّ الأمرُ على هذا المنوال.

السُّؤَالُ الثَّالِثُ: مَن هُوَ الشَّخصُ الذي يَجِبُ أنْ يتسلَّمَ القِيادَةَ ومَا هِي خَصَائِصُهُ وَسِمَاتُه؟

وهل ينبغي أن يكون الحاكم معصومًا أم لا؟ وما هو منشأ هذه العصمة؟ وما هي الضَّرورة لعصمته؟

في الواقع، هي أسئلةٌ تركز على موضوعة الحكم، مع أنَّ الحكمَ فرعٌ من فروع الإمامةِ، وهي لا تعدو أنْ تكون شأنًا صغيراً جدًّا من شؤون الإمامة. إنَّ ما ينبغي الحذر منه هو الخلط بين هاتين القضيّتين، بين الإمامة والحكومة.

الفَصْلُ الثَّانِي: مَعَانِي الإمَامَةِ وَمَرَاتِبُها

المَرْجِعِيَّةُ الدِّيْنِيَّةُ المَعْصُوْمَةُ

المَبْحَثُ الأَوَّلُ:
الإِمَامَةُ بِمَعْنَى المَرْجِعِيَّةِ الدّيْنِيَّةِ

كانَ النَّبيُّ ﷺ يتحرك في خطِّ التبليغ والدعوة بأمر الوحيِّ، فيعود الناسُ إليه لأخذِ رأيه ومشورته، وحكم الإسلام بكل ما يتعلَّقُ بحياتِهم ومختلف شؤونهم، خاصةً تلك التي لم تتبيَّن لهم في تفسير نصوص القرآن. والأسئلةُ التي نطرحُها هنا في هذا المجال، هي: هل الفترة الزمنية التي عاش فيها الرسول الأكرم ﷺ كافية كي يقومَ النبيُّ بإبلاغ كل أحكام الشريعة ومُتعلّقاتها ومعارفها وتعاليمها القرآنية وغيرها؟ وفي حال ظهور مستجداتٍ حياتيَّةٍ لم تكنْ موجودة سابقًا زمنَ الرسالة والرسول، كيفَ يمكنُ التعاملُ معها؟

في الواقع، تأتي أهميَّةُ موضوع الإمامةِ وحيويَّته باعتباره نوعًا من التخصصِ في وعي الدين، ومعرفته في بنيته، وأصالته، وهدفيته، والتبصر العميق في أحكامه وشريعته. وهو تخصصٌ أعلى شأنًا، وأرفع مكانةً من تخصص العالِم المجتهد، فهو تخصُّصٌ من عند الله -تعالى-. والأئِمَّةُ أشخاصٌ متخصّصُونَ ومتمرسونَ في الدين، أخذوا علومَه ونهلوا معارفَه من الرسول الكريم ﷺ، الذي علَّم معرفةَ الدينِ

وأُسُسَ الإسلام للإمامِ عليّ ﴿عليه السلام﴾، ومنه تحولت المعرفة للأئمَّةِ الأطهار ﴿عليهم السلام﴾ من بعده.

أمَّا أتباعُ مدرسةِ الخلافةِ (أهل السُّنّة)، فإنَّهم لا يؤمنون بما تقدم عن الإمامة، بل لا يؤمنون بأصلِ الفكرةِ حتى لكل الخلفاء، بمعنى أنَّهم يعتبرون -مثلاً- أنَّ الخليفةَ الأولَ (أبو بكر) هو خليفة وليس إمامًا؛ أي إنهم لا يقِرُّون بمرتبةِ الإمامة للخلفاء ولا لأي واحد من الصحابةِ بصورةٍ عامَّةٍ. لذلك، تراهم ينقلون في كُتبهم كثيراً من الأخطاءِ في المسائل الدينيّة عن الصحابة، في حين يعتقد الشّيعةُ بعصمةِ أئمَّتِهم عن الخطأ، ومن المُحال عندهم أنْ يُقرّوا للإمام بخطأ. حتى أنَّ هناكَ روايةً ينقلونها عن أبي بكر، يقول فيها: «إنَّ لي شيطانًا يعتريني، فإن استقمتُ فأعينوني، وإن زغت فقوِّموني»[1].

وأنَّ عُمَرَ قال في مواطنَ كثيرةٍ: "لولا عليٌّ لهلكَ عمرُ"[2]. فقد كان أميرُ المؤمنين ﴿عليه السلام﴾ يعمل على تصحيح أخطاء الخليفة، ولم يكن هذا الأخير ينكرها أو يغضُّ النَّظَرَ عنها، بل كان يعترف بها وبفضلِ الإمام عليّ ﴿عليه السلام﴾ فيها.

---

١ - أحمد بن حجر المكي: الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة، ص١٢. وراجع: عبد الله بن مسلم (ابن قتيبة الدينوري): الإمامة والسياسة، ج١، ص٢٢.

٢ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج٧، ص٤٢٤، كتاب القضاء والأحكام، باب النوادر، ح٦.

المَبْحَثُ الثَّاني: حَيَاةُ النَّبِيّ وَإِبْلَاغُ جَمِيْع أَحْكَامِ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ

هل كانت الفترةُ الزمنية التي عاشها الرسول الكريم ﷺ كافية لتبليغِ كلِّ تعاليم الدينِ وشرحِ عقائدِه وتفسيرِ آياتِه؟

في الواقع، إنَّ الوحيَّ الذي نزلَ على النبي الكريم لتبليغ أوامر الله وتعاليمه للناس، وكلُّ ما كان يجب أن يُعرف من الإسلام، أخبر به النبي، وعلم كل ما يحتاجه كي يوصله للناس. والمسألة هنا، ليست أنه بقي جزءٌ من أحكام الإسلام وتعاليمه لم يتم إبلاغها للرسول ﷺ، بل المسألة والسؤال هنا، هو: هل بقيت أمورٌ تتعلق بأحكام الدين لم يقمْ الرسولُ بإبلاغها لمتّبعيه وللنَّاسِ أجمعين؟

حقيقة، إنَّ أهلَ السُّنة -ممن يتبعونَ مدرسة الخلافة في العقيدة والفكر- يعتقدونَ بأنَّ تلك التعاليم والأحكام الإسلامية المعروفة التي يجب الالتزام بها، هي فقط تلك التي أعلن عنها الرسول الكريم ﷺ وأبلغها للناس ومارسها أمامهم، وأمَّا بخصوص ما استجدَّ من ظروف وأحوال كانت تتطلب أحكامًا ورؤيةً شرعيَّةً جديدةً، ولم تردْ في نصٍّ عن النَّبي ولا عن صَحْبِه، فلابدَّ من مَلءِ هذا الفراغ التشريعي بما أسموه بـ«القياس»، وقد تحدَّثَ عن هذا الأمر الإمامُ عليٌّ عليه السلام ناقدًا في قوله: «أَمْ أَنْزَلَ اللَّه سُبْحَانَه دِينًا نَاقِصًا، فَاسْتَعَانَ

بِهِمْ عَلَى إِتمَامِ»(١).

لكنَّ الأمرَ عند مذهب أهلِ البيت أو مدرسة الإمامة مختلفٌ، فهم لا يأخذون بشيءٍ اسمه قياس، لأنَّه -تعالى- أنزل دينًا كاملاً تامًا، والرسولُ الأكرمُ أبلغَ وبيَّنَ كلَّ شيءٍ ممَّا أمرته به السماءُ من قِيَمٍ وتعاليم، ومبادئ، وأحكام دينيَّةٍ ضروريَّة، وحيويَّة للإنسان في مسيرته الحياتيَّة، ولاحقًا قام النبيُّ الكريمُ بتعليم الإمام عليّ عليه السلام وتلقينه بكل ما ينبغي عليه فعله وتبيانه للناس بعد موته؛ أي إنَّه خصَّ تلميذَهُ الخاصَّ -وهو الإمام علي- بما يمكن أن نسميَه بالنظام والصيغة الكاملة لأحكام الإسلام، وقد أمره أن ينشرَها ويبثَّها بين صفوف المسلمين والناس كافةً. وهنا، يأتي أهمية موضوع "الإمامة"، حيثُ ترى مدرسةُ أهل البيت عليهم السلام، أنَّه ما دام لا يمكن أن يَنفذَ الخطأُ إلى قول النبيّ -لا عن طريق العمد ولا عن طريق السهو-، وأنَّه لا يمكن أن يأتيَه الاشتباه، فكذلك الحال بالنسبةِ إلى التلميذِ الخاصّ للنبي الكريم؛ حيثُ إنَّه لا يُمكن له أن يرتكبَ خطأً أو يأتيه أي اشتباه. وكما أنَّ النبيَّ مسدَّدٌ بشكلٍ من أشكال التسديدِ الإلهيّ، كذلك يكون تلميذه الخاصّ، مسدّدًا بالتّسديد الإلهيّ. وهذه مَرتَبَةٌ أُخرى من الإمامةِ(٢).

إنَّ القضيَّةَ الجوهريَّةَ في الإمامةِ، يمكن تقديمها وصياغتها من خلالِ العرضِ الآتي، وهو:

١ - محمد بن الحسين (الشريف الرضيّ): نهج البلاغة، الخطبة١٨، ص٦١.
٢ - راجع: مرتضى مطهّري: الإمامة، ص٤٩-٥٠.

مما لاشكَّ فيه، أنَّ المهمةَ الأساس في هذا العالم -التي ألقاها الله تعالى على كاهل الرسل والرسالات- هي إبلاغُ النَّاسِ تعاليم السماء، وأحكام الشرائع، وتبيان الهدى وخط الاستقامة على منهج الله -تعال- . وهذا يسري منذُ بَدءِ حركةِ النُّبوات إلى نُبوة الرسول الكريم محمد ﷺ. ولكن، بعد وفاة النبي ظهرت أمامنا أسئلةٌ عديدةٌ، منها: كيف ستتم عملية إبلاغ الناس بالتعاليم والأحكام، وبيانها وشرحها؟ ألا يجب أن يوجد بعده شخصٌ مؤهل يكون انعكاسًا لموقع النبي ووجوده في مرجعيته وبيانه لأحكام الدين وشرع الله -تعالى-، ويمثله كعنوان أصيل في مركز ديني بيِّن؛ يفسر ويشرح ويعلِّم؟ والذي يكون على هذا الواقع والكيفية والحال، ألا يجب أن يكون إنسانًا كاملاً متكاملاً؟

وفي الإجابةِ نقول: إنَّ مذهبَ أهلِ البيت يُعطينا إجاباتٍ صريحةً وواضحةً وعميقةً حول الموضوع، فالإمام علي عليه السلام هو الشخص الكامل الذي تنطبق عليه كلُّ سِماتِ تبليغ الرسالة وخصائصها بعد النبي ﷺ، إلاَّ أنَّه لا يُوحَى إليه؛ لأنَّ الوحيَّ نزل على النبي فقط، وما يقوله ﷺ في هذا المجال نطق به عن لسان الوحي مباشرةً، في حين أنَّ ما يصدر عن الأئمّة عليهم السلام يستند إمَّا إلى النبيّ ﷺ وإمَّا إلى إلهاماتٍ ربانيَّة لا تندرج ضمن الوحي الخاص. ولا يُفسَّر ما تَلَقَّوْهُ عن النبيّ بالقول إنّه ﷺ علَّمهم إيَّاه، بل يُفسَّر على أساس ما نذكره من قول عليّ عليه السلام: "علَّمني رسول الله ألف

بابٍ من العلم ينفتح لي من كلّ باب ألفُ باب»[١].

طبعًا، من الصَّعبِ أنْ نُفسرَ هنا طبيعةَ تلك العلاقة الوثيقة، وذاك الارتباط المعنوي والروحي العميق الذي كان قائمًا وموجودًا بين الرسول ﷺ والإمام عليّ عليه السلام حتى علَّمه الحقائقَ كما هي وبتمامها، ولم يُعلِّمْ أحدًا سواه. وقد لاحظنا كيف تحدَّثَ الإمامُ عليٌّ عليه السلام عن مواكبته ورفقته الدائمة للنبي الكريم ﷺ منذُ أنْ كان فتىً في غار حراء، وكيف سمع رنَّةَ الشّيطان حين نزل الوحيُ عليه ﷺ، يقول عليه السلام: "يَا رَسُولَ اللَّه مَا هَذِه الرَّنَّةُ، فَقَالَ هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِه، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ وتَرَى مَا أَرَى، إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيّ»[٢].

المَبْحَثُ الثَّالِثُ: عَصْمَةُ الأَئِمَّةِ عليهم السلام عَلَى صَعِيدِ المَرْجِعِيَّةِ الدِّيْنِيَّةِ

يؤمنُ المسلمونَ الشيعةُ إيمانًا عَقَدِيّاً بعصمةِ الأئمة عليهم السلام، وهي عندهم مثل عصمةِ الرسول الكريم ﷺ؛ أي إنَّهم معصومون عن الخطأِ والزلل

---

١ - جاء عن عبد الله بن مسعود، قال: «استدعى رسول الله ﷺ عليّاً فخلا به، فلمَّا خرج إلينا سألناه ما الذي عهد إليك؟ فقال: علّمني ألف باب من العلم، فتح لي كلّ باب ألف باب». (راجع: محمد بن النعمان: الإرشاد، ج١، ص٣٤).

٢ - الشريف الرضيّ: نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢، ص٣٠١.

والذنب. ولهذا، تكون مرجعيةُ الإمامِ -سواء في حركته الشخصية أو وجوده العام- مرجعيّةً يقينيَّةً كاملةً لا لبس فيها؛ بحيثُ إذا ما سمعناه ينطق بجملة، لن نحتملَ فيها الخطأَ، ولا الانحرافَ سواء أكان عن عمدٍ أم سهوٍ أم غفلةٍ أم نسيان، وهذا ما يُعبرِّ عن العصمة. ويُروى عنه ﷺ – في هذا المجال-: «إنيّ تاركٌ فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي»[1]. وهذا حديثٌ يرويه كلُّ المسلمين، بمختلف مذاهبهم وأطيافهم وتصنيفاتهم العَقَدية الفكرية، وذكره الرسول الكريم في كثير من المواقع والمواطن. وعندما يحضُّ النَّبيُّ الناسَ ويدعوهم لأخذ أسس الدين وتشريعاته وأحكامه من أهل البيت، فهذه دعوةٌ لها دلالة كبيرة على صعيد الأهميَّةِ والمَنزلةِ الإسلامية الكبرى التي وصلها الأئمة عليهم السلام، وهي دعوة حاسمة قاطعة لا تقبل الجدل ولا الشك.

وأمَّا نظرةُ أهلِ السُّنة أو مدرسة الخِلافة فهي تقوم على أنَّ انقطاع الوحي يعني انقطاعَ البيان الواقعي للدين ككل؛ أي ينقطع القولُ المعصومُ، والبيان المعصوم المنزَّه عن أيّ خطأٍ أو زلل.

أوَّلًا- سَبَبُ عَدَمِ تمكُّنِ الرَّسُولِ ﷺ مِنْ بَيَانِ كُلّ الأَحْكَام:

إنَّ القرآنَ الكريمَ كتاب هِدايةٍ، وردتْ فيه كثيرٌ من الأحكامِ والقِيَمِ

---

[1] - مسلم بن الحجاج النيسابوري: الجامع الصحيح (صحيح مسلم)، ج٧، ص١٢٢، كتاب الفضائل، باب فضائل علي(رض).

والتشريعات، ولكنَّها بمجملِها كانت أحكامًا عامةً مختصرةً وذات إجمال عام، بما يعني أنَّ معظمَ ما ورد فيه كان عبارةً عن كلِّيَّات. فمثلاً، في موضوع مهم وحيوي وعظيم، ويُشكِّلُ أحدَ أهم أركان الدين، وهو الصلاة، نجد أنَّ القرآنَ لم يتحدث كثيراً عنها أكثر من قوله تعالى: ﴿**أقيموا الصلاة**﴾[البقرة: ٤٣]، دون أن يتحدثَ عن طبيعةِ الصلاة وكيفية إقامتها، وهكذا الأمر بالنسبةِ للأحكام التفصيليَّةِ لفريضةِ الحج أيضًا.

وحتى على مستوى سُنة الرسول الكريم ﷺ، فقد أتت وفق هذا الإطار الإجمالي والصيغة العامَّة الإجمالية، حيثُ لم يُتح كثيرٌ من الوقت للنَّبي لتعليم الناس كلِ أمورهِم وشؤونهم الدينيَّةِ والدُنيويَّةِ، وتبيان كل ما في الإسلام من وصايا وتعاليم وأحكام وتشريعات.

ثَانِيًا- اللُّجُوءُ إِلَىٰ القِيَاسِ:

لجأت مدرسةُ الخِلافةِ (أهل السنة) إلى اتباع القياس لسدِّ النقص في موضوع التشريع، فعندما تُطل عليهم مسألةٌ لا يجدون لها امتداداً أو سبيلاً في كتاب الله يعودون إلى سنة الرسول وأحاديثه، وفي حال لم يجدوا أيضًا مرادَهم في أحاديث النبي -مع ملاحظة أنَّ الخليفةَ الثاني منعَ التدوين- سلكوا طريقَ القِياس، وهو يعني الاعتماد على مواطن التشابه بين ما له حكم في القرآن أو السنّة، وما ليس له فيهما حكم. فإذا تشابه الموردان، قِيس ما ليس له حكمٌ على ما له حكم، وعُرِفَ حكمُه على هذا الأساس.

والتقدير هنا هو وجود مناط العلَّة والمِلاك في مورد ما، ليُصار إلى إصدار حكم شرعي على مورد آخر له نفس العِلَّة والمِلاك.

طبعًا، مع تطور حركة الفتح الإسلامي، وتزايد حاجات الناس، والتفاعل مع حضارات ومجتمعات جديدة، ظهرت قضايا وحوادثُ كثيرةٌ جدًا، كان يحتاج الناسُ معها لأحكام شرعية لم تكن موجودةً في القرآن ولا في السُّنة؛ لذلك كان الحل دومًا في القياس، وليس في العقل.

وعلى هذا الطريق، انقسمت مدرسةُ الخلافة على صعيد البحث عن الأحكام الشرعية في كثير من مناطق الفراغ التشريعيَّةِ إلى قسمين: الأول أنكر مسألةَ القِياس ورفضه، وتزعم هذا الخط (أحمد بن حنبل)، و(مالك بن أنس) الذي ذكرت الروايات أنَّه لم يمارِس القياس أبدًا إلَّا في مسألتين فقط، والثاني فتح البابَ أمامَ القِياس على مصراعيه، وقد ذهب في ممارسته إلى عنان السماء، كما حصل مع (أبي حنيفة)، أمَّا (الشافعي) فقد سلك دربَ الوسطيَّةِ بين الفريقين السابقين.

لقد مارسَ (أبو حنيفة القياس) على نطاقات واسعة، مُطلقًا العنان لخيالِه في هذا المجال، حتى كتب أحدُهم قائلاً: إنَّ (أَبا حنيفَة) ذهب إلى الحلاَّق يومًا؛ حيثُ كان الشيبُ في أوَّل أوانه، ولم يزدد في رأسه بعد، فطلب من الحلاَّق أنْ يستأصلَ الشعراتِ البيضَ لكي لا تزداد. فذكر له الحلاَّق أنَّ الشعرَ الأبيضَ يزدادُ باستئصاله كثرةً ونموًّا، فطلب منه (أبو حنيفة) أن يستأصلَ الشعرَ الأسودَ، وقد صدر موقفه هذا عن قياس فحواه:

إذا كان الشعرُ الأبيضُ يزداد وينمو بالاستئصال، إذًا من شأن الشعر الأسود أن يزدادَ ويكثرُ نموّه بالاستئصال أيضًا، في حين أنَّ قاعدةَ نمُوّ الشعر وازدياده بالاستئصال تنطبق على الشعر الأبيض فحسب، ولا تجري على الشعر الأسود[١].

ثَالثًا- مَوقِفُ الشّيْعَةِ مِن القِيَاسِ:

أمَّا بخصوص موقف مدرسةِ الإمَامةِ (أهل البيت) من مسألة القياس، فقد رفضوها، وضربوا مرتكزاتَها وأسسَها، وأظهروا خطأً سلوك طريق هذا النمط من التفكير الذي يسيء إلى أهم موردين للأحكام الشرعية، وهما القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، مع أنَّ ما جاءنا ووصلنا من أحاديث سواء بشكل مباشر عن النبي الكريم ﷺ أو عن طريق الأئمة الأطهار عليهم السلام، تُغْنِي مراجعةُ كلّيَّاتِه عن اللجوءِ إلى القِياس. وهنا بالذات، تظهر أهميَّةُ موضوع الإمامة استنادًا للبعد الديني ووجهة النظر الدينية.

---

١ - راجع: مرتضى مطهّري: الإمامة، ص٧٧-٧٩.

الفَصْلُ الثَّالِثُ: مَعَانِي الإِمَامَةِ وَمَرَاتِبُها

الوِلَايَةُ الإِلَهِيَّةُ

المَبْحَثُ الأَّوَّلُ:
عِنْدَمَا تَأْتِي الإِمَامَةُ بِمَعْنَى الوِلَايَةِ الإِلَهِيَّةِ

تمتلئ كُتُبُ الشيعةِ بمفهوم الإنسان الكامل، أو بمفهوم «حُجة العصر». وهذا المفهوم مترابطٌ في العمق بموضوع الإمامةِ، والإنسانُ الكاملُ درجةٌ روحيَّةٌ عرضَ لها كثيرٌ من عُرفاء الشيعةِ، بل يمكن القول: إنَّ التشيَّعَ يعرفها منذ بدايات الإسلام. وقد ذكر العلامة الراحل السيد (محمد حسين الطباطبائي) في جوابه على سؤالٍ وجَّهه إليه (هنري كوربان) حول مصدرِ مفهومِ الإنسان الكامل، فكان جواب العلامة: إنّ المتصوِّفةَ هم الذين أخذوا عن الشّيعة، لأنّه كان مُتداوَلاً في أوساط الشّيعةِ في وقتٍ لم يكن قد تبلور فيه التَّصوُّفَ بعد، ولم تكن قد شاعت في أوساطه مثل هذه المسائل، ثمّ نفَذَ بعد ذلك وبرز في أوساطهم. ولقد ارتكز منحى العرفاء والمتصوِّفة على مسألة الإنسان الكامل كثيراً. فـ(مولوي) يقول: «إنَّ لكلِّ عصر وليًّا قائمًا»، وإنّ في كلّ عهدٍ إنسانًا كاملاً، يكون حاملاً للمعنويَّة الإنسانيَّة العامَّة، ولا يخلو زمان أبدًا من الوليّ الكامل الذي يُعبرَّ عنه أحيانًا بالقطبِ.

يعتقد هؤلاء أنّ للوليّ الكامل -الذي ينطوي على صفات الإنسانيّة ومقاماتها بشكلٍ تامّ وكامل- مقاماتٍ بعيدة كلّ البعد عن أذهاننا. فمن بين المقامات التي تُذكر له: تسلُّطه على الضمائر، أي القلوب، انطلاقًا من كونه روحًا كلّيَّة يُحيط بجميع الأرواح.

وبالعودة لكل مصادر العقائد الإسلامية ومواقعها عند متبعي مدرسة أهل البيت، نجد أنَّ مسألةَ الولاية مطروحةٌ على نحو يفيد المعنى السابق، أي تطرح من موقع الكمال الإنساني، في أنْ يكونَ الوليُّ حُجَّة الزّمان؛ بحيثُ لا يكون ثمّة زمان خالٍ من الحُجَّة أبدًا «ولولا الحُجَّة لساخت الأرض بأهلها»[١]؛ أي أنَّ الأرضَ لا يمكن أن تخلو من إنسانٍ كاملٍ يقيم الحجة على الناس.

وقد جاء في الزيارة التي باتت معلمًا من معالم الإيمان بمذهب أهل البيت وجزءًا من أُصول التشيُّع: "أشهد أنّك تشهد مقامي وتسمع كلامي وتردّ سلامي"[٢]. يعني نحن نُخاطبه بهذا الكلام وهو ميّت، ولا فرق

١ - جاء هذا التعبير -مع بعض الاختلافات البسيطة- في كثير من النصوص الواردة عن أئمة أهل بيت النبوة عليهم السلام، مثلما هو الأمر مع ما رواه الطبري في دلائل الإمامة: عن عمرو بن ثابت، عن أبيه، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: سمعته يقول: «لو بقيت الأرض يومًا واحدًا بلا إمام منا لساخت الأرض بأهلها، ولعذبهم الله بأشدّ عذابه، وذلك أنّ الله جعلنا حجّة في أرضه وأمانًا في الأرض لأهل الأرض ...». (محمد بن جرير الطبري: دلائل الامامة، ص٤٣٦، ح٤٠٧).

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج٩٧، ص٢٩٥.

بالنسبة إلينا في تحلّيه بهذا المقامِ بين حياته ومماته. وهذا لا يعني أنَّه لم يكن كذلك في حياتِه وأنَّها من مختصّاته بعد مماته.

أمَّا الأمرُ عندَ مدرسة الخِلافَة، فهو غير قائم، بل ومرفوض؛ حيثُ لا يؤمن أهل السنّة -من غير الوهّابيّين- بوجود مثل هذا المقام إلاَّ للنَّبي الكريم ﷺ فقط.

نعم، الإمامةُ على ثلاثِ مراتب ودرجات، يجب التفكيك فيما بينها، كي لا نقع في مطبات وإشكالات أثناءَ ممارسة الاستدلال في مجال الإمامة.

ويمكننا القولَ: بالنظر لما تقدم حول موضوع الإمامةِ، يوجد للتشيع ثلاثِ درجات، هي:

الدرجة الأولى: النظر الاعتقادي للإمامة بحكم كونها قيادة اجتماعيَّة فقط.

الدرجة الثانية: النظر الاعتقادي للإمامة من حيثُ إنَّها مرجعيَّةٌ دينيَّةٌ معصومةٌ.

الدرجة الثالثة: وهي ما عليه غالبية المنتمين لمذهب أهل البيت عليهم السلام؛ حيثُ الاعتقاد السائد حول الإمامة بحكم كونها ولاية إلهيّة كاملة مكتملة.

المَبْحَثُ الثَّاني: الوِلَايَةُ الإِلَهِيَّةِ

يمكنُ القول بدايةً: إنَّ الإيمان بالولايةِ الإلهيَّة ليسَ ركنًا أساسيًّا أو جوهريًّا من أساسيات وأركان التشيُّعِ. ولكن، لا بد من إيضاح الأمر

من خلال طرح مجموعة أسئلة مهمة على هذا الصعيد، ومحاولة الإجابة عليها: فهل مقام النُّبوة للرسول الكريم ﷺ مقتصرٌ على أداء دور الرسول بين وحي ومجتمع؟ وهل علمه محصورٌ في تلقي التعاليم والوصايا والقِيَم في أصول الإسلام وفروعه عن طريق الوحي فقط دون أن يكون له أي شأن في معرفة أي شيء وراء ذلك من جهة الله تعالى؟ وهل هو معصومٌ عن ارتكاب الخطأِ في جانب الفعل والعمل فحسب؟

وعلى صعيد أئمة أهل البيت عليهم السلام، هل مقامهم فقط هو مقام تبليغ الرسالة والدعوة لقيم الدين وأحكامه بعدما أخذوه عن النبي الكريم، والإمام علي عليه السلام، بالنحو الذي يكون علمهم بكلّيّات الإسلام وجزئيّاتِه وفروعِه كعلم النبيّ لا يداخله شيء من الخطأ؟ وأنّهم في مقام التقوى والعمل معصومون من الخطأِ أيضًا؟

في الواقع، تُعَدُّ ولاية التصرُّف، أو الولاء المعنويّ، أعلى مراحل الولاية. وتتصل نظريةُ «الولاية المعنويّة» بطبيعة القدرات والإمكانات الموجودة بالفعل والقوّة في هذا الكائن «الإنسان»، وأيضًا تتصلُ بالعلاقة بين هذا الكائن والله. ويتمثَّلُ المعنى الحقيقي لهذه الولاية التكوينيَّةِ في أن يكون حضور الله –تعالى- في نفس هذا الإنسان في أعلى مواقع الوجود الإيماني ومراتبه، بما يجعله يقترب من الله –تعالى-؛ بحيث يُصبح مُسلَّطًا على الوجدان والضمير، وشاهدًا على

الأعمال، وحُجّة على زمانه، وهذا معنى أنَّ الأرضَ لا تخلو من حُجَّةٍ. وهذه الولاية، هي من شؤون ذلك العبد الذي تنزَّه كليًّا من أهواء نفسه، أمَّا الإنسان الذي ما يزال تحت سيطرةِ رغباتِه وأهوائه وميوله العشوائيَّةِ فهو محرومٌ من أمثال هذه الكرامات. إنَّ الإنسانَ الذي طَهُر إلى ذلك الحدّ، لا تنبعث إرادته أبدًا من النَّزعاتِ والغرائز التي تنبعث منها إرادتنا، بل تتحرَّك إرادته باطنيًّا وبإشارة غيبيَّةٍ، أمَّا كيف يكون ذلك؟ فلا علم لنا به[١].

ويجبُ أنْ نُقرَّ هنا، أنَّ قبول مفهوم الولاية على النحو الذي شرحناه ليس سهلاً أو قابلاً للتصديق لدى الجميع، حتى لدى شريحةِ المتنورين والواعين، فقد يَعتبر كثيرٌ منهم أنَّ الخوضَ في مثلِ هذه القضايا التي تتعلَّقُ بالبُعدِ التوحيدي، يَجعل المرءَ يقترب من الشرك به -تعالى- أو هي شكلٌ من أشكال الغُلو به عز وجل.

وفي واقع الأمرِ، هناك كثيرٌ من القضايا المتعلقة بالدين في أصوله وأركانه، يتم فيها النقاش، وقد لا نتمكن من تقبل الكلام والنقاش فيها وحولها. ولسنا نحن -برغبتنا ومزاجنا- من يحدد كون قضية ما من القضايا شركًا أو توحيدًا، فالأمر مرهون للبراهين والمقاييس القرآنيَّةِ المعرفيَّةِ الدقيقَةِ.

---

١ - مرتضى مطهّري: الولاء والولاية، ص٥٣-٥٤؛ ص٥٨-٥٩.

المَبْحَثُ الثَّالثُ:
فِي مَعْنَى التَّقَرُّبِ إِلَىْ اللهِ وَارتِبَاطِهِ بِـــ"الوِلَايَةِ الإِلَهِيَّةِ"

تتمثَّلُ غايةُ الأديانِ في بناءِ الإنسانِ من داخلِه على قِيَمِ الحَقّ والفضائل والانفتاح على الله تعالى، أي التقرب منه. والقربُ هنا، لا يأتي بالمعنى الماديّ الحِسي، بل بمعنى أنْ يقتربَ المؤمنُ من صفاته عز وجل، ويتمثَّلُ قِيَمَه. ولا يمكنُ للإنسان الطالب للقاءٍ أن يُرفعَ لمستوى اللقاء من دون الالتزام بالمجاهدة الروحيَّةِ والنفسيَّةِ، والعمل على الطاعات والعبادات، يقول -تعالى-: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[العنكبوت: ٦٩].

إنَّ الإنسان ليسَ مجردَ كائنٍ ماديّ مُكوَّن من مواد أرضيَّةٍ، ماء وتراب وطين، بل يمكن أن يرتفعَ بروحِه إلى مستوى أنْ يصبحَ إنساناً كاملاً، يقول عز وجل: ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ**﴾[الحجر: ٢٩]. فالله -تعالى- خلق الإنسانَ وفيه من روحه، والله كمالٌ مطلقٌ لا حدَّ لقدرته وعظمته، وأي كمال يتحرك في الوجود يعود إلى حقيقةِ الوجودِ العميقةِ المتجذرةِ والأصيلةِ، مثل: العلم، والقوّة، والحياة، والإرادة، والرحمة، والخير، وغيرها.

إنَّ سعيَّ الإنسانِ للتّقرب من الله -تعالى-، يَقتضي أنْ يكونَ أكمل في وجوده، وقِيَمِه، ومجاهداتِه، وتخلُّصِه من شوائبِ الدنيا، والعودة

إليه -عز وجل-: ﴿إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾[البقرة: ١٥٦]، وهي عودةٌ مقرونةٌ بالسَّعيّ العِباديّ، والطاعة، والقيام بواجبات الدين وأحكامه، مما قد يجعله في حالةِ ارتقاءٍ وهدايةٍ إلى أعلى درجات سبل الرحمن -عز وجل- في استكمال طرق العلمِ والقوَّةِ والإرادةِ والمشيئةِ وغيرها، وصولاً ليصبح إنسانًا كاملاً -روحًا وعملاً-، فيجتاز صراطَ العُبوديّةِ للوقوف في مقام الملائكة أو إلى أبعد من ذلك المقام، يقول -عز وجل-: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾]البقرة: ٣٤].

الفَصْلُ الرَّابِعُ:

الاِسْتِدْلَالُ العَقْلِيُّ عَلَى قَضِيَّةِ الإِمَامَةِ

المَبْحَثُ الأَوَّلُ: دليلُ اللُّطفِ

تُعَرَّفُ الإمامةُ، من جملة ما تُعرَّف، بأنَّها رياسة عامَّة في أمور الدّينِ والدُّنيا. وقد استخدم (الطّوسيّ) مصطلحًا كلاميًّا، فقال: «الإمامُ لطفٌ»[١]؛ أي أنَّها لطفٌ من الله -عز وجل-، تمُاثِل النُّبوةَ، من حيثُ إنَّها خارجةٌ عن طاقة البشر وحدود إمكاناتهم. وإذا كانت النُّبوةُ تأتي عبرَ الوحي، وتتجسدُ في شخصيَّةِ رسولٍ يُوحَى إليه، لتكون تعيينًا من السماء، فإنَّ الإمامةَ هي أيضًا لا تكون ولا تأتي إلا بتعيينٍ من النبيِّ وبأمرٍ منه -عز وجل-.

وإذا ما تعمّقنا أكثر في فهم المنهج الذي استدلَّ من خلالِه علماءُ الشيعة على الإمامة، فقد شرح الخواجة (الطوسي) المنهج وفقًا للآتي:

أَوَّلًا: لاشك بأَنَّ الإسلام دينٌ حياتي اجتماعي لا يقتصر في دعوتِه وقِيَمه على جانبٍ دون آخر، بل هو جامعٌ وشاملٌ لكلّ مناحي الحياةِ البشريةِ. أي إنَّه يدخل في كل الحياةِ الخاصَّةِ والعامَّةِ للفرد.

---

١ - نص عبارة الخواجة: «الإمام لطفٌ، فيجب نصبه على الله –تعالى- تحصيلاً للغرض». (راجع: الحسن بن يوسف الحلي: كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، ص٤٩٠).

ثَانِيًا: عندما ندرس تاريخَ الحياةِ النَّبوية للرسولِ الكريمِ ﷺ نجد أنَّ الوقتَ اللاَّزمَ لإبلاغ وإيصال تعاليم السماء كافةً، خلال الأعوام الثلاثة والعشرين من أعوام البعثة الشريفة، لم تكن كافيةً له لتحقيق رسالته، مع أنه ﷺ لم يوفر فرصة ولا زمنًا إلاَّ وانهمك في تعليم الناس أصول دينها وأحكام شرع الله تعالى.

ثَالِثًا: يصلُ الاستدلالُ إلى استحالة أنْ يكونَ مثل هذا الدينُ قد تُرِك بيانه ناقصًا. لذلك، كان لابدَّ أنْ يكونَ بين الصَّحابةِ شخصٌ واحدٌ، أو مجموعةٌ تلقَّت الإسلامَ من النبيّ ﷺ كاملاً، واستوعبته بتمامه، بحيثُ يكون هذا التلميذُ أو المجموعةُ جاهزين لتوضيح الإسلام وبيانه بعد النبيّ مباشرةً.

رَابِعًا: لم تتعاملْ الشّيعةُ مع الدين على أساس أنَّه دينٌ غيرُ مكتملٍ -ناقص- مثلما الحال مع بقيَّةِ المذاهب، الأمرُ الذي أفضى معهم -مع من يقول بالنقص الواقع في الدين- إلى استعارةِ معايير ظنيَّة لسدّ ما اعتُبر نقصًا عندهم، كالقياس. وهذا ما تم رفضه من قِبل الشيعة؛ حيثُ أكَّدَ أئمتُهم عليهم السلام على أنَّ الدينَ كاملٌ مكتملٌ، ولا نقصَ فيه، ففي كتاب "الكافي" -مثلاً- باب مضمونه: ما من شيء -من الحلال والحرام- إلاَّ وقد جاء فيه كتابٌ وسُنَّةٌ، أو في كلّياته على أقلّ تقدير[1]. فكُلّيَّات المسائل جاءت مدرجةً في الكتابِ والسُّنَّة، وما يجب هو الكشف عن المصداق وحسب. والاجتهاد في الرّؤيةِ الشّيعيَّةِ، لا يعني أكثر من هذا؛ إذ هو يعني كفايةَ كليَّاتِ

١ محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج١، ص٥٩.

الإسلامِ وأُصولِه العامَّة، وما على المجتهدِ إلَّا أنْ يُطبِّقَ هذه الأصولَ الكلّيَّةَ على الجزئيّات ليصلَ إلى الأحكام. وممَّا تقدم، تتضحُ أمامنا حقيقةَ أنَّ المنطقَ الذي ارتكز عليه علماءُ الشّيعةِ يتحدثُ عن أنَّ السنة والشيعة يتفقان في عدمِ كفايةِ الفترة الزمنية التي عاشها الرسول الكريم لبيان أحكام الشَّريعة وتعليم الناس، ولكنَّهما يختلفان حول مرحلةِ ما بعد النبي. فالسُّنة تقول بأنَّه ﷺ ترك الأُمَّةَ ومضى دون أنْ يرسمَ لها أيَّ شيءٍ بخصوص مستقبلها. أمَّا الشيعة فيعتقدون بأنَّ النبي ﷺ قاد بنفسه عملية تعيين وتنصيب أشخاص بعينهم، لهم جَنَبَة قُدسيَّة، يخلُفونه من بعده؛ فقد قام النبيُّ بتعليم أوَّل هؤلاء الخلفاء -وهو الإمام عليّ عليه السلام- جميعَ حقائق الإسلام، وبيَّنها له بتمامها، كي يتصدَّى لجميع ما يُعرض من أسئلة. وكان الإمام عليّ عليه السلام يطلب من الأُمَّة دائمًا أنْ يسألوه عمَّا بدا لهم ليُجيبهم[1].

١ - كانت من عادة أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام ودأبه أنْ يحضَّ النَّاسَ في خطبه ومواعظه على المبادأة بالسؤال له، حتى قال: «أيّها الناس إنيّ ابن عمّ نبيّكم وأولاكم بالله ورسوله، فاسألوني ثم اسألوني»، (الشيخ المفيد: الإرشاد، ج١، ص٢٢٩). وفي خطبة أخرى، قال: «سلوني قبل أن تفقدوني، فوالله لا تسألوني عن فئة تضلُّ مئة وتهدي مئة إلاّ نبّأتكم بناعقها وسائقها إلى يوم القيامة». فما كان من أحدهم، إلاَّ أن نهض فقال: «أخبرني كم في رأسي ولحيتي من طاقة شعر؟» (الشيخ المفيد: الإرشاد، ج١، ص٣٣٠). وقد نقلت معظم المصادر التاريخيّة وبأسانيد صحيحة ومتعدّدة أنّ الإمام علي (ع) كان حريصًا دومًا على تحريض وحضّ أبناء الأُمَّة على سؤاله. (راجع: عبد الحسين الأميني: الغدير، ج٦، ص١٩٣-١٩٤؛ ج٧، ص١٠٧–١٠٨). وأجمل مما تقدم ما ذكره أحمد بن حنبل: «لم يكن أحد من أصحاب النبيّ يقول سلوني إلاّ علي بن أبي طالب». (أحمد الطبري: الرياض النضرة في مناقب العشرة، ج٢، ص١١٨؛ سليمان القندوزي البلخي: ينابيع المودة لذوي القربى، ج١، ص٢٢٤).

فالإمام مرجعٌ مختَصٌّ، ولابد من وجوده بعد الرسول؛ حيثُ إنَّ منطقَ الأشياءِ يَقتضي وجود خبير بشؤون الدين والدنيا، عارف بحقائق الأمور، فما بالك بإمامٍ أعلنَ عنه الرسولُ، وقدمه للناس، ورفع رايته، وبيَّن حجته، وأسبغ عليه صفات المرجعية الحقيقية من بعده، وهذا مظهرٌ من مظاهر اللُّطف؛ كون الإمام ضرورة نافعة لحياة الناس.

إنَّ الإمام في موقع ممارسة مسؤولية الإمامة ملمٌّ بكل تفاصيل الشرع وتعاليم الدين، قيِّم على شريعة الله -تعالى-، وهذا يعني أنَّه مرجعُ الأُمَّة الحقيقي، بما يستلزم أن يكونَ معصومًا مثل العصمة النبوية. فالنبيُّ الكريمُ (ص) الذي أرسله له تعالى هاديًا ومبشرًا ونذيرًا، لا يمكن لأيّ كان أنْ يثيرَ الشبهةَ حول عصمته (ص)، ولا يجوز الخطأُ عليه ومنه.

والخطأُ على ضِربين، أحدهما: أنْ تصدرَ المعصيةَ عن علمٍ وعمد، كأنْ يأمرَ اللهُ النبيَّ بشيء، فيرى النبيُّ أنّ مصلحتَه تقتضي شيئًا آخر، فيُبلِّغ أمرَ اللهِ على نحوٍ آخر، مخالف لصورته الأصلية. ومن الواضح، أنَّ هذا مخالفٌ للنُّبوّة. وثانيهما: أنْ تصدرَ المعصيةُ عن سهوٍ ونسيان. وهذا مآله إلى كونِه ناقضًا للغرض من إرسال الأنبياء.

وكون الإمامة حالة تُكمِلُ النُّبوة في الدعوة والإشراف والتبليغ والحفاظ على الشريعة، وإظهار حقائق الدين، فذلك يعني أنَّها واجبةُ الوجودِ والفاعليَّةِ والأداء ومكملة لفاعلية ووظيفة النبيّ في بيانه لأحكام الشرع وتعاليم الدين. عندئذٍ ما كان دليلاً على وجوب عصمة النبيّ من الخطأ

والذنب، يعود ليكون بذاته دليلاً على وجوب عصمة الإمام.

وإذا اعترض بعضٌ بعدم حاجةِ الإمامِ للعصمةِ، لوجود شخصٍ آخر يُسدِّد له خطأه إذا أخطأ، فإنَّا ننقل الكلامَ إلى هذا الشخص الآخر، الذي يحتاج بدوره إلى من يُسدّده، وهكذا إلى أن ننتهي -ببطلان التسلسل- إلى وجوب وجود شخص يكون -لعصمته- حافظًا للشرع.

ثم لو افترضنا إمكان صدور الخطأِ أو وقوع الذنب منه، لوجب الإنكار عليه من قِبَل الآخرين، وذلك يُضادُّ ما أُمروا به من طاعته. وهذان الاثنان لا يجتمعان[1] .

▪ المَبْحَثُ الثَّاني:
وُجُوبُ التَّعْيِّينِ بِالنَّصِّ

لاشك، أنَّ الإمامةَ لطفٌ منه -تعالى-، ومن مظاهر هذا اللطف –مثلاً- أنَّه يرسل رسلاً وأنبياءً لإبلاغ دعوته، وهدايةِ النَّاسِ للدين والحق. ولكن، هذا اللُّطف لا يمكن أنْ يتمثَّلَ دون عصمةٍ، بمعنى أنَّ حاملَ الرسالةِ لا يمكن إلَّا أنْ يكونَ معصومًا عن الخطأ، ومن يُكمل رسالةَ النُّبوةِ يجب أيضًا أنْ يكونَ معصومًا. واللطف غير ممكن من دون عصمةٍ. وبالتالي،

١ - مرتضى مطهّري: الإمامة، ص١٠١-١٠٣.

فالإمامُ ينبغي أنْ يكونَ معصومًا. وللسَّببِ ذاته يجب أنْ يكونَ منصوصًا عليه؛ لأنَّ العصمةَ -كموضوع- لا تُشخَّص من قِبَل الناس، بحسب ما يقول (الطوسي)[١].

إنَّ أمرَ النُّبوة ليس متاحًا ولا مناطًا للناس، بل هو تعيّنٌ وتنصيب. فالله -تعالى- يختار النبيَّ، ويعيّنَه، ويقدمه للناس من خلال رسالته ومعاجزه، وكراماته، وإفاضاته، وآثاره. وكذلك هو الحال مع مسألة الإمامة، فالناس لا شأن لها في اختياره وتعيينه، فالله هو الذي يختاره ويعيُّنه، مع فارق بين تعيين الإمام وتعيين الرسول، وهو أنَّ الإمام يتعرف الناس إليه من خلال النبي.

وهكذا نجدُ أنَّ دليلَنا على الإمامةِ، انطلق من مظهر اللُّطف إلى حالة العصمة، ومن العصمة للتعيين والتنصيص. وإذا ما سلَّمنا -بما تقدم- سنصلُ حتمًا إلى إمامةِ عليّ عليه السلام؛ حيثُ إنَّ العصمةَ والنصَّ والتعيّنَ مختصةٌ به عليه السلام. والمقصود من هذه الجهة في الدليل: أن لا أحد يختلفُ في أنَّ لا نصَّ على غير عليّ عليه السلام. ومن ثمَّ، فإنَّ القضيَّةَ لا تتحرّك بين رأي يذهبُ الآخرون بمقتضاه إلى أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم نصَّ على شخصٍ آخر وبين

١ - عبرَّ نصير الدين الطوسي عن هذا الجانب في الإمامة بكلمات، حيث قال على طريقته في الاختصار: «والعصمة تقتضي النص وسيرته عليه السلام». ثمّ جاء الدور للعلاّمة الذي أوضح ذلك بوجهين. (أنظر: الحسن بن يوسف «العلاّمة الحلي»، كشف المراد، ص٣٦٦-٣٦٧).

قولنا في أنَّ النصَّ اختُصَّ بالإمام عليّ عليه السلام. كلَّا، وإنَّما تدور القضيَّةُ بين فكيَّ هذا السؤال: هل نصَّب النبيُّ أحدًا وعيَّنه أم لم يفعل ذلك قطّ؟ في حال القول بالتعيين، لن نجد مصداقه إلَّا في عليّ عليه السلام[1].

وأمَّا بخصوص موضوع العصمة، فالتحليل الاستدلالي نفسُه يتكرر؛ إذ إنَّ كلَّ الخلفاءِ بعد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لم يُتحدَّث عن عصمتهم، ولم يزعُم أيُّ واحدٍ منهم أنَّه معصوم عن الخطأ. فكثير منهم اعترف بارتكاب الأخطاء وأقرَّ به. وأتباع مدرسة الخلافة أنفسهم لم يقولوا بعصمةِ الخلفاء. كما أنَّ الإمامةَ عندهم تعني الإدارة السياسية أي الحكومة فقط. وهذا الجانب فيه أخطاء وعثرات ولا عصمةَ فيه.

وفي دائرة الحكم عندهم لا معنى للقول بعصمة الحاكم وعدم خطئه، بل هو يُخطئ كثيراً ويرتكب الذَّنبَ أيضًا. ولكنَّه، يكون في حدود إنسان عادلٍ له أهليَّة الإمامةِ في الصَّلاة. وقد نقلوا عن الخليفةِ الأوَّل قوله: "وإنَّ

---

١ - يقول الطوسيّ في نص مهم حول الإمامة والعصمة: «العصمة والنص مختصّان بعليٍّ عليه السلام إذ الأمّة بين قائلين: أحدهما لم يشترط العصمة والنصّ. والثاني المشترطون. وقد بيّنا بطلان قول الفريق الأوّل فانحصر الحقّ في قول الفريق الثاني. ثم يعود للقول: وكل من اشترطهما -العصمة والنص- قال إنَّ الإمام هو عليٌّ عليه السلام. وتوضيح الجملة الأخيرة أنَّ عليًّا هو المعصوم بإجماع من يقول بوجوب النص. وهو الذي قصده النص دون غيره». (راجع: العلاّمة الحلي: كشف المراد، ص٣٦٧)؛ (راجع: علي مقلد: نظام الحكم في الإسلام أو النبوّة والإمامة عند نصير الدين الطوسي، ص٣٩٠).

اعوجَجْتُ فقوِّموني»[١]. أمَّا عمر بن الخطَّاب، فقد صدر عنه قوله في مواطن كثيرة -ادّعى من استقصاها أنَّها بلغت سبعين موطنًا، ولا كلام في كثرتها وفي اتّفاق الشّيعة والسنَّة بشأنها-: "لولا عليٌّ لهلك عمر»[٢]؛ حيثُ كان الخليفةُ يرتكب الأخطاءَ، فيُصحِحها له الإمام عليٌّ عليه السلام، وكان هو -أي الخليفة- يقبل منه ويشكره ويمدحه.

من هنا، عندما نُعاين موضوعَ الإمامةِ من هذا الجانب والمقام الكبير، وحينما يتحرك موضوعها من موقع اللطف، والعصمة، والتنصيص، والتعيّين، فإنَّه لا يمكن لأحدٍ إلا أنْ يقفَ، ويقول: إنَّه لا يستحق هذه الدرجة والمرتبة الرفيعة إلَّا الإمام عليّ عليه السلام.

١ - عبد الحميد بن هبة الله (ابن أبي الحديد المعتزلي): شرح نهج البلاغة، ج٢، ص٨.

٢ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج٧، ص٤٢٤.

الفَصْلُ الخَامِسُ:

عِصْمَةُ الإِمَامِ

مُقدّمَةٌ ضَرُورِيَّةٌ

إنَّ العصمةَ من المباحث الأساسيَّةِ المتعلقةِ تعلقًا مباشرًا وعميقًا بمسألة الإمامة، والسبب أنَّ الولايةَ للإمام عليّ عليه السلام -في فكره ومنهجه وبكل ما أمر به ونهى عنه التزامًا بشريعة الله تعالى- شرطٌ جوهريٌّ وأساسيٌّ لتَحقُّق الفائدة والمنفعة من وجود الإمام، وهذا أمرٌ لا يتحقَّق دون الطاعة والتبعيَّة الكُليَّة للإمام الذي عيَّنه الله -تعالى- من خلال النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا لا يتحقق إلَّا من خلال كونِه معصومًا في دوره هذا.

المَبْحَثُ الأَوَّلُ: حَقِيْقَةُ العِصْمَةِ وَمَصْدَرُهَا

يقول -تعالى- في كتابه العزيز: ﴿**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**﴾[يوسف: ٢٤].. هذه الآية تعطينا فكرةً عن وجود واقع ومجال آخر لمسألة العصمةِ، فالله -تعالى- يُحدثُنا هنا عن أنَّ النبي يوسفَ عليه السلام هو بشرٌ مثلُنا من بعض النواحي، واجه في موقفٍ امرأةً جميلةً، فمالت

إليه، ولكنَّه (نتيجة لعصمة ذاتية تتمثل في إيمانه الشُّهودي الممنوح له من الله عز وجل) رفض الانجرار وراءها، ولم يستجب لها ولا لغريزته.

نعم، يوجد في داخل كل واحد فينا، ما يمكن أنْ نقولَ عنه عصمة تعصم الإنسان عن بعض الذنوب والمهاوي والمُنزلقات الحياتية، وهي تنبع من داخل وجدانه وضميره الحي وإيمانه العميق وفطرته السليمة التي أودعها تعالى فينا، فمثلاً الإنسان السوي والعاقل يرفض بفطرته السليمة أنْ يرميَ نفسَه من سطح مبنى، لأنَّه رَمْيٌّ للنفس إلى التهلكة، مع قناعته العاقلة بأنَّه سيتسبب بأذيَّةٍ كبيرة لجسده، قد تكون نهايتها الموت، ولذلك لا يُقدِم على هذا الفعل ولا تحصل في نفسه ميل نحوه. فضلاً عن أنَّ التَّقوى كمَلَكةٍ إيمانيةٍ داخلية تردع الإنسانَ وتمنعه عن الوقوع تحت براثن كثير من السقطات والذنوب.

هذا كلُّه يعطينا فكرةً عن أنَّ عصمةَ الإنسانِ عن ارتكاب المعاصي وكثير من الذنوب، مرهونةٌ لمدى إيمانه وتقواه ووعيه الديني وارتباطه بالله واعتصامه بحبل التقوى المنجي. إذًا، فالعصمة من الذنوب هي منتهى الإيمان وكماله، والإنسان الذي يقول: «لو كُشِفَ لي الغطاء ما ازددت يقينًا»[١]. هو معصومٌ من الذنوب جزمًا.

إذًا، ماهيَّةُ العصمةِ من الذنبِ والخطأِ ترتبط بدرجة الإيمان وكمال هذا

١ - محمد بن علي (ابن شهر آشوب): مناقب آل أبي طالب، ج١، ص٣١٧.

الإيمان في الإنسان ووعيه العملي في سلوكه وممارساته، فللإنسان في كلّ درجةٍ من الإيمان عصمةٌ تتناسب مع هذا الإيمان، وبحسب ما وصل إليه من برهان ﴿لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾[يوسف: ٢٤]. وبه يتَّضح خطأ الاعتقاد أنَّ المعصومَ شخصٌ مثلُنا من كل النواحي، فيهمُّ نحو المعصية دائمًا، ولكن غاية ما هناك، أنَّ مَلكًا مأمورًا من قِبَل الله يمنعه ويأخذ بيده دونها، فإذا كان الأمرُ كذلك، فلا فرقَ بين أحدنا وأمير المؤمنين عليّ عليه السلام، لأنَّ كِلَينا يهمُّ بالمعصيةِ ويميلُ إليها، ولكن غاية ما هناك أنَّ له ملكًا وُكّل به يمنعه، في حين لم يوكَّل بمنعي أنا.

إذا كان الامتناعُ عن الذنبِ يتمُّ برادعٍ خارجيّ يوكَّل بالإنسان ويمنعه عنه، فلا فضيلة للممتنع عن المعصية في ذلك؛ إذ المسألة تُشبه حينئذٍ أن يقومَ شخصٌ بالسَّرقَة بينما أمتنع عنها أنا؛ لأنَّ معي دائمًا شرطيًّا يُتابعني. ففي هذه الحال أنا سارق مثله ولكن مع فارق أنَّه لا يحُول بينه وبين السرقة شيء، بينما يحول بيني وبينها وجود الشرطيّ.

المَبحثُ الثّاني: مَراتبُ العِصْمة ودَرَجاتها

يتحدَّث العلماءُ في بحوثهم العَقَديَّةِ والكلاميَّةِ عن وجود شكلين ونوعين معروفين للعِصمة، الأول وهو الأهم، العصمة من الذنوب؛

والثاني هو العِصمة عن الخطأ.

وللعصمة عن الخطأ بدورها وجهان، الأوَّل: العصمة عن ارتكاب الخطأ في تبليغ الرسالة، فالنبيُّ أوضحَ التعاليم الإلهية والأحكامَ الشرعية للنَّاس، وليس هناك احتمالية لنفاذ الخطأ أو السهو في عملية التبليغ هذه، بأن يكونَ الله قد أوحى له الحكم بصيغة، ثم بيَّنه لنا بصيغة أُخرى، والثاني: هو العصمة عن الخطأ في مجاليَ الفعل والتدبير، بحيثُ يكون أمامَ الشَّخصِ عِدَّةُ خيارات فيختار الأقلّ ضررًا والأكثر فائدة. فإذا لم يفعل ذلك وُصف فعله بالخطأ لا الذَّنب والمعصية، لأنَّه بذلك لن يصلَ إلى المطلوب ولن يُحقّقَ الغايةَ المنشودةَ من النجاح والفلاح. وهذا الوجهُ ثابتٌ للمعصومِ أيضًا.

وقد جاءَ عن الرَّسول الكريم ﷺ الحديث المشهور (حديث الثقلين) حيثُ يقول: «إنيّ تاركٌ فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي»[1]، وهو حديث موثوق ومعروف روته مصادر أهل السنة في كثير من مظانّهم المعروفة.

ويتضمنُ هذا الحديث "كتاب الله وعترتي" إشارة واضحة إلى أنَّ المرجعيَّةَ الدينيَّةَ والعمليَّةَ تعودُ للقرآنِ والعترةِ الطاهرةِ، وفيه أيضًا بيان لعصمة أهل بيت النبوة عليهم السلام في مختلف مواقعها ودرجاتها.

---

١ - أحمد بن حنبل: مسند أحمد، ص١٤-١٧-٢٦-٥٩.

الفَصْلُ السَّادِسُ:

الإِمَامَةُ فِيْ القُرْآنِ

تمَهْيدٌ ضَرُورِيٌّ

يُعدُّ القرآنُ الكريمُ دستورًا للمسلمين، ومرجعًا لهم في دينِهم ودُنياهم، وهم يتّفقُون على قداسةِ نُصوصه ومعارفِه، وأنَّ ما أُنزِل فيه هو هدىً للنَّاسِ، وتبيانًا لهم في حياتهم الدُنيويَّة والأخرويَّة

يأتي هذا الاتفاق بينهم -في المجال العملي- ليكون استدلالاً بنصوصِ القرآنِ على أيّ مسألة أو قضيَّةٍ دينيَّةٍ، فهو كلامُ الله -تعالى- المُوحَي إلى نبيّه الكريمِ محمد ﷺ.

وعلى الرغم من وجود هذا الإجماع الاتفاقي -إذا صح التعبير- بين مختلفِ المذاهبِ الإسلاميَّةِ، عجز المسلمون عن بلورةِ تصورٍ واحدٍ ووضع رؤيةٍ واضحةٍ فيما يتعلق بعمليات الاستدلال أو الاستنباط من نصوص كتاب الله (القرآن).

والحاصل، أفضى هذا الاختلاف (الخلاف) إلى ظلم المسلمين لأنفسهم، من خلال حرمانهم من بركات وفيوضات هذا الكتاب العظيم الذي أنزله تعالى هدى ورحمة للعالمين وليس فقط للمسلمين.

وهو حرمان فكريٌّ واجتماعيٌّ وعمليٌّ ومعنويٌّ، يتمثل في عجزهم عن

تأسيسِ وبناءِ منظومةٍ معرفيةٍ إسلاميةٍ عامة وشاملة لكل المسلمين بعيدًا عن المذهبية والتفكيرِ المذهبي والطائفي.

وربمَّا كان من أهم وأوضح أنواع الحرمان هو حرمانهم لأنفسهم من إدراكٍ رصين ومعياريّ لمسألة الإمامة ووعيها على ضوء معطيات النَّصّ القرآني، مع وجود كثيرٍ من الآياتِ والشواهدِ المباشرةِ وغير المباشرةِ التي أشارت إلى الإمامة بمثابة القضية المحور في منظومة الاعتقاد الإسلامي.

المَبْحَثُ الأَوَّلُ: دَلِيلُ الإِمَامَةِ فِيْ القُرْآنِ الكَرِيمِ

أوردَ القرآنُ الكريمُ آيات عديدةً تتحدثُ عن واقعة الغدير -حيثُ جرت البيعةُ للإمامِ عليّ عليه السلام عند غدير خُم- نذكر منها قولَ الله -عز وجل-: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**﴾[المائدة: ٦٧].

تختزنُ هذه الآيةُ في داخلِها مضمونًا مهمًّا يعكس حقيقةَ الحديث في أنَّ «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهليّة»[١]، وهي تتوجه للرسول الكريم بلهجةِ أمرٍ بأنَّك إنْ لم تمُارس دورك في إبلاغ هذا الأمر -الحيوي والجوهري- الذي أَنزله الله تعالى عليك، فما بلَّغت الرسالة،

---

١ - محمد بن علي ابن بابويه القمي(الشيخ الصدوق): كمال الدين وتمام النعمة، ص٤١٠.

وعندها تكون رسالتُك غيرَ مكتملةٍ.

ليأتي السؤال مباشرة وبشكل بديهي: ما هو ذلك الأمر الجلل والمهم والحيوي المفترض قيام النبي الكريم بتبليغه للنَّاس، وأنَّ رسالتَه كلها تتوقف عليه؟

تقول الشيعةُ الإماميَّةُ إنَّ الأمرَ المهمَّ والجلل هو الإمامةُ، حيثُ إنَّه –تعالى- أخبر النبيَّ وحيًا بأنَّ الإمامَ عليًّا عليه السلام هو الخليفةُ والوصيُّ من بعده، وأنَّ إتمام الرسالة وكمال الدين ورضى الله تعالى، يكمنُ كله مجتمعًا في تبليغ أمر الإمامةِ إلى النَّاس أجمعين. فلولا الإمامةُ، لارتدَّ النَّاسُ على أعقابِهم وانقلبوا خاسرين دينهم ومعركتهم ضد الجاهلية الأولى، يقول -تعالى-: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا**﴾[المائدة: ٣].

تعكس الآيةُ في لغتها ومضامينها واقعًا كثيفًا من المعاني في تأكيد قيمة الإمامة وأهميتها الفائقة التي تعلو إلى حد أنَّها مكملة للدين، ومتممة لنعمة الله، بحيث توازي أهمِّيَّتها الإسلام نفسه، حتى يساوق انتفاؤها انتفاء الرسالة ذاتها.

المَبْحَثُ الثَّاني: الاِسْتِدْلَالُ القُرْآنِيُّ عَلَىْ مَسْأَلَةِ الإِمَامَةِ

جاءَ في القُرآن الكريم قوله -عزّ وجل-: ﴿... **الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ**

عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

يتضمنُ النَّصُّ القرآنيُّ السابقُ ناحيتين أو قسمين للبحث والتحليل، يبدأُ كلٌّ منهما بكلمة «اليوم»، ويشكلان معًا قطعةً واحدةً من الآية السابقة الواردة في سورة المائدة، وهما يعبران عن فكرة واحدة؛ حيثُ تُشير الآيةُ في قوله -عز وجل-: **﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ واخْشَونِ ...﴾** إلى يأس الكفَّار من الانتصار على المسلمين ومحق دينهم، ولأنَّهم يئسوا من ذلك فقد كفُّوا عن مواجهتكم بذاك النَّهج الذي كانوا يواجهون به الإسلامَ من قبل، فلا تخشوهم، ليردفَ النَّصَّ قوله: **﴿وَاخْشَوْنِ﴾**. إشارةً إلى أنَّ هذا الدّينَ لن يدخلَه الضَّرَرُ والأَذَى من أولئك بعد اليوم، وإذا تصادفَ ودخلَ إليه أيُّ ضررٍ، فإنَّ ذلك يكون بالضّرورة -وبمقتضى السّياق-منِّي.

نقرأُ في تتمَّة الآيَة: **﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾**؛ حيث ذَكر النصُّ كلمتين متقاربتين إلى بعضهما بعضًا، هما: الإكمال والإتمام[١]، والفرق بين الكلمتين أنَّ الإتمامَ يُطلق حيثُ يأتي آخرُ أجزاءِ الشيء المتتابعة بعضها وراء بعضٍ، فإذا ما انضمَّت كلها حتى آخر جزءٍ، قيل قد تمَّت وإلَّا بقي الشيءُ ناقصًا. وأمَّا الإكمالُ فهو معنى زائدٌ على التَّمام، فإنَّ الشيءَ قد يكون تامًّا غير ناقصٍ، ولكنَّه مع ذلك غيرُ

١ - مرتضى مطهّري: الإمامة، ص١٣٠-١٣٢.

كاملٍ، كمثل إنسان تمَّ هيكله البدنيّ ولم ينقصه شيء إلَّا أنَّه لم يصل بعد إلى مرحلة النُّضج والتَّكامُلِ، يقول القرآن الكريم من جهة: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾ ومن جهة أخرى يقول: ﴿**وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي**﴾ ثمّ يُردف: ﴿**وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا**﴾، أي: أضحى الإسلامُ اليوم، هو الإسلام الذي يريده الله -تعالى- الذي جاء ليكونَ فعلاً مؤثّرًا للناس وهاديًا لهم واكتمل وتمَّ حتى وصل حدَّ الكمالِ في ذلك اليوم -وهو يوم البيعة- ليكونَ عليٌّ إمامًا للمسلمين.

وإذا ما عُدنا لسياقِ الآيةِ وما قبلها وما بعدها من الآيات، لما وجدنا ما له دلالة على ذلك اليوم -يوم البيعة- بحيثُ لا يمكن أنْ يُفهمَ أيُّ شيءٍ في ذلك اليوم من القرائن اللّفظية للآية ذاتها. فقد تُسبَق آيةٌ بذكرِ واقعةٍ أو قضيَّةٍ مهمَّة جدًّا، ثم تُردَف بالقول «اليوم» فيأتي إطلاقه بمناسبةِ ذكرِ تلك القضيَّة. بَيدَ أنَّ الحاصلَ هنا ليس شيئًا من هذا القبيل، إذ سُبقَ النصُّ بأحكام عاديَّة، لها صلة بما يحرُمُ أكله من لحوم الحيوان وما يحلُّ.

ففيما الآيةُ تتحدَّث عن حكم المَيتَة والدَّم ولحمِ الخنزير وأنَّها مُحرَّمةٌ، وإذ بالنصّ يواجهنا فجأة بقوله -تعالى-: ﴿**الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا**﴾. بعد هذا الاستطراد يعود النصُّ مرّةً ثانيةً إلى السّياقِ الأوّل الذي كانت عليه الآية، فيذكر حكمَ المضطرّ: ﴿**فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ**

رَّحِيمٌ﴾. وترتيب النَّصّ جاء بصيغة بحيثُ إذا رفعنا هذا القسم منها -الذي نتحدّث فيه- نجد أنَّ القِسمَ الأوَّل يتَّصلُ بالقِسمِ الثَّانيِ من دون طروء أدنى خلل على السياق، كما هو عليه الحال في موردين أو ثلاثة آخرين تكرّرت في القرآن[1].

▪ المَبْحَثُ الثَّالثُ: الإِمَامَةُ فِيْ القُرْآنِ

النَّظَرِيَّاتُ حَوْلَ المرُادِ بِـ«اليَوْم»

أَوَّلًا- النَّظَرِيَّاتُ حَوْلَ المرُادِ بـ"اليوم»:

حاول مفسرو القرآن أنْ يعرفوا المعنى المراد من كلمةِ "اليوم" التي وردت في آية الولاية (الآية٣/سورة المائدة).

بهذا الشأن برزت عدة آراء، منها:

١-المراد باليوم، يوم البَعثَةِ: ودليل ذلك هو أنَّ الآيةَ حين تقول: «اليوم»، ثم تصفه بأنَّه اليوم الذي رضي الله فيه الإسلام دينًا للمسلمين، فإنَّ مُقتضَى القاعدةِ أنْ يكونَ المقصود منه هو يوم بعثة النبيِّ، وبذلك تكون القرينة

---

١ مرتضى مطهّري: الإمامة، ص١٣٣-١٣٥.

هي قول الله عز وجل: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا﴾.

وقد يكونُ هذا التفسير أو التحليل التصوري صحيحًا لو لم يكن قوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا﴾ مسبوقًا بالجُمل التي قبلها، لأنَّ تلك الجملَ أبرزت الحديث عن حال إكمال الدين وإتمام النّعمة، والحال أنَّ بدايةَ هذه النّعمَة كانت مع أوّل أيَّامِ البعثة، وبهذا يكون قوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا﴾ دالاًّ على بيان أنّ الإسلام الذي كمُل الآن وتمّت نعمة الله به على المسلمين، هو ذلك الإسلام المرضيّ. وبذلك يتبيّن عدم صحّة تفسير (اليوم) بيوم البعثة.

٢- المرادُ بـ«اليوم»، يوم فتح مَكّة: ذكر مفسرون آخرون أنَّ يومَ فتح مكة هو من أهم الأيام العظيمة في كل التاريخ الإسلامي، يقول -عز وجل- : ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا* لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**﴾[الفتح: ١-٢].

ومن المعروف أنَّه كانت لمكةَ مكانة رمزية وروحيَّة مهمة، حيثُ أنَّه وبعد عام الفيل والهزيمة الساحقة التي مُني بها المهاجمون (أصحاب الفيل)، انطوت كل القبائل في الجزيرة العربيّة على إيمان اعتقادي عظيم بالكعبة من حيثُ أنَّها معبدٌ مهم.

ولاحقًا تمكَّنَ المسلمونَ من تحريرِ مكةَ وفتحِها من دون إراقة قطرة دم، حيثُ أنَّ النَّبيَّ الكريم ﷺ انتهج نهجًا في عمليةِ الفتحِ تمكن بموجبه من تحقيق غاية الفتح بسلامٍ وأمانٍ ومن دون دم، باستثناء ما كان صدر

عن (خالد بن الوليد)، عندما وصل إلى قومٍ في أطراف مكَّة، فقتل جماعةً بعد أنْ قاومه عددٌ منهم. وعندما وصل الخبرُ إلى النَّبيِّ تبرّأً ممَّا كان فعله خالد، وقال: «اللَّهمّ إنيّ أبرأ إليك ممَّا صنع خالد بن الوليد»[١]. بعد هذه الواقِعة أسلمت الجزيرة العربيّة، وجاء أهلُها النبيّ واختاروا الإسلام، وبينَ أيدينا آيةٌ في القرآن تؤيّدُ ما تقدَّم، وهي قول الله -عز وجل-: ﴿**لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا**﴾[الحديد: ١٠].

ولكن لا يوجد أيُّ دليلٍ -تاريخي أو لغوي أو غيرهما- يُثبت صحةَ ادعاء من يقول إنَّ المرادَ من اليوم هو يوم فتح مكة.

٣- المراد بـ«اليوم»، يوم تبليغ سورة براءة: يُعدُّ يوم قراءة سورة «براءة» من الأيَّام والتواريخ المهمَّة الأُخرى في الإسلام، حيثُ يحتمل أنْ يكونَ هذا اليوم هو اليوم المعنّي والمراد في الآية الكريمة السابقة «سورة المائدة/ آية ٣»، وهي (أي القراءة) وقعت في السنة التاسعة للهجرة النبوية الشريفة.

وقد كان لهذا اليوم نتائج ومآلات مهمة كبيرة لجهةِ ترسيخ القدرة العسكريَّة والرُوحيَّةِ المعنويةِ للإسلام والمسلمين، حيثُ عاشَ المسلمون حالةَ الصُّلحِ مع المشركين، وجرى الاتفاق على أنْ يكونَ لهم -للمشركين- الحق في الطوافِ والبقاءِ في مكة، وحتى أن يشتركوا في الحج، وجاء

---

١ - راجع: عبد الملك بن هشام الحميري: السيرة النبوية، ج ٤، ص٧٠.

في مُتون التاريخ أنَّه في إحدى السنوات اشترك فيها المسلمون بالحَجِ مع المشركين، وقاموا بأداء المناسكِ وفقًا للتعاليم الإسلاميَّةِ، كما أدَّى المشركون حَجَّهم وفقًا لتعاليمهم وعقيدتهم، وفي السَّنة التاسعة للهجرة النبوية نزلت سورة براءة (التوبة) حيثُ ندَبَ النبيُّ الإمامَ أمير المؤمنين لقراءتها في منى على مسمع من النَّاس، وبمقتضى هذه السُّورَة لا يحقُّ للمشركين بعد عامهم هذا أَن يُشاركوا بمراسم الحجّ، فالحجُّ أضحى مَنسكًا خاصًّا بالمسلمين فقط.

ومن أجل تبليغِ هذه السورة للناس، أرسل النبيُّ الكريمُ ﷺ الإمامَ عليًّا عليه السلام على ناقتِه الخاصَّة «العضباء» ليؤدّي تلك المهمةَ الكبيرةَ، بعد أنْ نزل عليه الوحيُ وأخبره: «أن لا يؤدّيها إلّا أنت أو رجل منك»[1]. وكان هذا التبليغ من الأيَّامِ الخالدة والاستثنائية في حركة التاريخ الإسلامي، حيثُ حُسم موضوع بقاء الحرم المكيّ مختصًا بالمسلمين دون سواهم، وأنَّه لا يحق للمشركين بعد اليوم الاشتراك في الحج.

وبالنَّظر إلى أهميَّةِ هذا اليوم، بحسب ما رويناه آنِفًا نقلاً عن متون التاريخ، قيل إنَّه هو اليوم المراد في الآية. ولكنَّ الواضحَ أنَّ هذا الاحتمالَ لا ينسجمُ مع ما قاله -عز وجل-: ﴿**وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى**﴾ لأنَّ نزولَ الكثير من التعاليم والأحكام جاء بعد هذا التاريخ.

---

١ - راجع: الشيخ المفيد: الإرشاد، ج١، ص٦٥.

ثَانيًا- اعتِقَادُ الشّيْعَةِ وَرَأيُهُم فِيْ مَسْألَةِ «اليوم»:

وأمَّا ما يراه الشيعةُ حولَ موضوعِ «اليوم» الوارد في الآية الكريمة، فهو يوم الغدير الذي تمَّ فيه إعلان تعيين الإمام عليّ عليه السلام وتنصيبه بالولاية على المسلمين، وهم يتحدثون عن كمٍّ كبيرٍ من الشواهد والقرائن والأدلة على صدق ذلك. انطلاقًا مما تقدم، يمكننا تقسيمُ البحثِ هنا إلى جُزأين، الأوَّل: الدلائل والشواهد التاريخيّة، والثاني: المضمون الحقيقي للآية:

الدَّلَائِلُ وَالشَّوَاهِدُ التَّارِيخِيَّةُ:

يُمكن القول اختصارًا للوقت والجهد أنَّ كتابَ الغديرِ لـ(السيد الأميني)، قدَّم أُطروحةً تاريخيَّةً مُوَثَّقَةً وفريدةً لاستعراض وتحليل القرائن والإثباتات والشواهد التاريخية المفصلة عن واقعة «غدير خم» في كتابه «الغدير».

كما قدم آخرون قبله أدلةً مهمةً على هذا الصعيد، فها هو كتاب «تاريخ اليعقوبي» ، يذكر لنا كثيراً من الروايات حول قصَّةِ «غدير خم»[١]. والذي تذكره الرواية: أنَّ النبيَّ حين عودته إلى المدينة من مكَّةَ بعد حجَّة الوداع[٢]، صار إلى موقع بالقرب من الجحفة[٣]، يقال له غدير خم، أوقف

---

١ - أحمد بن أبي اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص١١٢.

٢ - جاءت حجّة الوداع في السنة الأخيرة من حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وبالضبط قبل حوالي شهرين من وفاته، ويذكر الرواة أن النبي وصل النبيّ إلى غدير خم في الثامن عشر من شهر ذي الحجّة. (محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج٤، ص٢٤٨، كتاب الحج، باب حج النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ح٦.

٣ - الجحفة: هي ميقات أهل الشام.

فيه القافلة وجمع المسلمين ليخطب بهم، وقد أمر بمنبر فَعُمِلَ له من أحداج الإبل، فعلاه وتحدَّثَ إليهم، فقالَ صلى الله عليه وآله وسلم: "يا أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ وَلِيُّكُمْ وَأَوْلَى بكُمْ مِنْ أَنْفُسكُمْ؟ فقالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَقَالَ: مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاَهُ اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالاَهُ وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»[1]، بعد أنْ أتمَّ الرسولُ إبلاغَه، نزل قوله -عز وجل-: ﴿**الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا**﴾.

وما يعتقده الشيعةُ لناحية البُعد والمَجال التاريخيّ لقضيَّةِ الإمامةِ، هو ضرورة العودة إلى التَّاريخِ لمعرفةِ المراد من ﴿**الْيَوْمَ**﴾ في قوله عز وجل: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾، وعندها سنجدُ وسيظهر أمامنا كمٌّ كبيرٌ من الروايات والأحاديث التي تواترت لتدلَّ على أنَّ ذلك اليوم المراد في الآية هو يوم غدير خم الذي جرى فيه تعيين وتنصيب الإمام علي عليه السلام خليفة للرسول الكريم، من قبله عليه الصلاة والسلام.

٢- مَضْمُونُ الآيَةِ:

يقول -تعالى- في نصِّ الآية السَّابقة: ﴿**الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ**﴾، وفي آية أخرى يقولُ: ﴿**وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم**﴾[البقرة: ١٠٩].

---

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج١، ص٢٩٥، كتاب الحجة، باب الإشارة والنص على أمير المؤمنين عليه السلام، ح٣.

وفي الآية يأتي التحذيرُ منه -عز وجل- للمسلمين، ومضمونه أنَّ المشركين يُخططون ويتآمرون، ويستهدفون النيلَ من دينِكم محاولين استئصاله؛ ثمَّ يأتي -تعالى- في هذه الآية ليذكرَ إحباطُهم من الإسلام، فقد انتهى نشاطُهم المضاد والمعادي لدينكم ﴿**فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ**﴾. فإذا ضعف دينُكم بعدئذٍ أو استُؤصل، وإذا أصابكم أي شيء، فـ«اخشَون».

إنّ الآيَةَ تتحدَّثُ عن مفهوم توسُّع القرآن في عرضه ضمن نصوص قرآنية عديدة، وقدمه بصيغة أصل وأساس، يشمل النعم التي أنعم بها على عباده والمؤمنين بنهجه، قال -عز وجل-: ﴿**إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[الرعد: ١١]، وقال -عز وجل-: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾[الأنفال: ٥٣]. والمرادُ هنا أنَّه -تعالى- لا يَحرمُ أُناسًا من أيّ نعمة إلَّا إذا جعلوا أنفسَهم غير مستحقين للنعمة، وهذه الفكرة تعبيرٌ وقيمةٌ أساسِيَّةٌ وأصيلةٌ، وناموسٌ كوني تاريخي من النواميس التاريخية التي أوردها كتاب الله.

وبالتالي كأنَّ قولَه: ﴿**فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ**﴾ يتحدثُ للمسلمين قائلاً: أيُّها المسلمون، إذا كان هناك خطرٌ بعد الآن فهو يتمثّل بسوء صنعكم مع نعمة الإسلام، فحين تكفرون بالنعم ولا تستفيدون منها كما ينبغي، حينئذ سيجري عليكم قانون: ﴿**إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾، بما يعني أنَّ الخطرَ الحقيقي الماثل اليوم، والذي يتربصُ بكم، ليس خارجيًّا، بل هو خطرٌ داخليٌّ.

المَبْحَثُ الرَّابِعُ: الإِمَامَةُ فِيْ القُرآنِ

مَاهِيَّةُ الوَضْعِ الخَاصّ بِالآيَاتِ الَّتِي تَتَّصِلُ بِأَهلِ بَيْتِ النُّبُوَّةِ عليهم السلام

من يقرأ القرآنَ بتمعُّن، ويدرس ويحلل كثيراً من تفاسيره، سيقع على آيات قرآنيَّة وردت حول أهل البيت عليهم السلام -أو أنها كانت مختصةً بالإمام عليّ عليه السلام على أقل التقادير-، انطوت على حالةٍ خاصَّة أو على وضعٍ خاصّ، وهو: أنّها في الوقت الذي اشتملت فيه على دلائلَ وشواهد تُثبت وتؤكّدُ الفكرةَ من الآية نفسِها، نجدُ فيها دافعًا وسعيًّا لذكر هذه الفكرة المحوريَّة في الآية، وسط أفكار أُخرى، أو الإتيان بها في سياق قضيَّةٍ أُخرى قد تغطّي على الفكرة الأساسيَّة والمحوريّة، فما السرُّ والغاية من وراء ذلك؟! ثمَّ إذا كان -تعالى- يريد أنْ يجعلَ الإمامَ عليًّا وليًّا وإمامًا وخليفةً للرسولِ على المسلمين، فما السبب في عدمِ إيضاح الصورة كاملة بلا غموض؟ أليس من الضروري هنا التصريحُ المباشرُ باسمه عليه السلام؟

في الإجابةِ سنتحدثُ عن تلك الآيات، ونأخذ نماذج منها.

أَوَّلًا- نمَاذِجُ آيَات وَرَدَتْ وَسْطَ آيَات مُخَالفَة لَهَا بالسّيَاق العَّام:

١ -آيةُ التّطهير: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[الأحزاب: ٣٣].

تُسمى هذه الآيةُ بآية التطهير، وهي تفيد أنَّ اللهَ عز وجل أسبغَ الطهارةَ والتنزيهَ على أهل البيت الكرام، وفي قوله -عز وجل-: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ دلالة على حالة خاصَّة من التَّطهِير، فالطَّهَارَةُ التي ذكرها الله لا تنصرف إلى التَّطهيرِ العُرفيّ أو الطّبي، بحيثُ يكون المراد تطهيرَ أجسامِ أهل البيت من الأمراضِ والجراثيم. والرجس و»الرّجز» الوارد في الآية يشمل كل ما جرى النهي عنه في كتاب الله تعالى، وجميع ما أحصاه من أشكال الذّنوب، سواء الذُّنوب الاعتقاديَّة أو الأخلاقيَّة أو العمليّة، فهذه جميعها رجس وقَذَر، والآية جاءت تصف أهل بيت النبوة عليهم السلام، وهم الرسول والإمام علي وفاطمة الزهراء وحفيدي الرسول، الحسن والحسين.

وأنَّها نزلت في سياق تلك الواقعة المعروفة التي اجتمع فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع عليٍّ والزهراء والإمام الحسن والإمام الحسين عليهم السلام. ويروي أهلُ السُّنّة أنَّ الآيةَ حين نزلت سألت أُمُّ سلمةَ (وهي إحدى زوجات النبيّ) رسولَ اللهِ فيما إذا كانت من جملة أهل البيت أم لا، فأجابها النبيّ: «لا، ولكنّك على خير»[١].

وآيةُ التَّطهيرِ تأتي مع آياتٍ أخرى تتحدثُ عن نساءِ النبيّ، يقول -تعالى-: ﴿يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء﴾[الأحزاب: ٣٢]، والآية تبين أنَّ أيَّ ذنبٍ يصدرُ عن إحدى زوجات الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم فهي تستحق عليه

١ - علي بن الحسين المرتضى: الشافي في الإمامة، ج٣، ص١٢٤.

عقوبةً مضاعفةً، فمن جانبٍ هناك ارتكاب للذنب، ومن جانبٍ آخر هناك ذنب هتك حرمةُ الزَّوج وهو النبي الكريم، ونون النسوة الواردة في الآية لها دلالة على أنَّ النَّصَّ يخاطبُ حصرًا نساءً (زوجات النبي)، لكن مع تدقيقنا في الآية التي بعدها نجد أنَّ الضميرَ المستخدَم هو مذكَّرٌ وليس مؤنثًا، بدليل قوله يُطهركم وليس يطهركن، وعنكم لا عنكن! يقول عز وجل: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ**﴾ ولهذا دلالة على الآتي:

الدَّلَالَةُ الأُولَى: جرى الحديث عن «أهل البيت»، ولكنَّ سياق الحديث كان قبل ذلك متمحورًا حول نساء النبي: ﴿**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ**﴾ أي أنَّ الخِطابَ تبدَّلَ والعنوان تغيرَّ من النساء إلى أهل البيت.

الدَّلَالَة الثَّانِية: تغيّر الضمير تبعًا لذلك من التّأنيث إلى التّذكير. وهذا لا يحدث اعتباطًا أو من دون مغزى وغايةٍ ومعنى، حيث لابدَّ أن توجدَ مسألةٌ أخرى في غاية الأهميةِ يريد أنْ يتحدَّثَ عنها النَّصّ، غير تلك التي تضمّنتها الآيات السابقة.

ومن يتأملُ في الآياتِ السَّابقةِ واللَّاحقةِ لآيةِ التّطهيرِ يجدُ أنَّها تتضمن معاني التكليف والأمر لنساء النبيّ، وقد جاءت محمَّلةً بروحِ التَّهديد والخوف والرَّجاء، ويدلُّ عليه قوله -عز وجل-: ﴿**وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ**﴾، وهذا أمرٌ وتهديدٌ مباشر لهن. بينما نجد أنَّ مفادَ آيةِ التَّطهيرِ وطريقةَ الحديث فيها مختلفةٌ عن الآيات التي سبقتها والتي تلتها، وهي تتجاوز المدحَ لتتحدَّث عن التّنزيه عن الذُنوب والمعاصي،

والتَّطهير من الموبقات، وفي الواقع هذا هو سرُّ ما جاء في رواياتنا عن أهل البيت عليهم السلام من تأكيدٍ كبيرٍ على أنَّ آياتِ القرآن يمكن أنْ تتحدَّثَ في بدايتها عن شيء، وفي وسطها عن شيء آخر، وفي آخرها عن شيء «فكرة أو موضوع» ثالث...»[1].

٢-آيَةُ الإِبْلَاغِ: جاء قوله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ**﴾[المائدة: ٦٧].

أتت الآية في النَّصّ بحيثُ إنَّه إذا ما قمنا برفعها من وسط النص (وسط الآيات الأخرى)، فإنَّ النَّص لا يختلّ في سياقه، مثلما هو الحال مع قوله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ**﴾، فعند رفع هاتين الكلمتين، لا يصاب النص بأي انقطاع ولا يختل توازنه.

وعلى ما يبدو أنَّ مضمونَ هذا الأمر ومنحاه الحقيقي، يمكن اكتشافه من خلال ما دلَّت عليه النُّصوصُ القرآنيَّةُ ذاتها، كما جاءت الإشارة إليه في أحاديث وروايات الأئمة عليهم السلام، ومضمونه أنَّه ليس هناك من بين أحكام الإسلام وتعاليمه ما هو أقلّ حظًّا في التنفيذ من قضيَّةِ أهل بيتِ النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وإمامةِ عليّ عليه السلام، ويعود ذلك إلى العصبيَّةِ المتجذرة في عمق روحيَّةِ العربِ، وهي عصبيَّةٌ صعبةُ المِراس، تجعل استعدادَ الفردِ العربي في أقل درجاته لكي يتحفزَ ويتفاعلَ مع فكرةِ ولاية أهل البيت وإمامتهم، حيثُ

---

١ - مرتضى مطهّري: الإمامة، ص١٧١-١٧٥.

جرت عمليةُ تبليغ الأُمَّةِ بتعيين علي (عليه السلام) وتنصيبه إمامًا للمسلمين وخليفةً للرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) وهذا الإبلاغ بالتنصيب والتعيين ليس رغبةً نبويَّةً بقدر ما كان أمرًا إلهيًّا استجاب له الرسولُ الكريمُ (صلى الله عليه وآله وسلم)، ومع ذلك وجدنا كيف تحرك المنافقون وضعاف النفوس ليفسروا تلك الآيات وذلك الإبلاغ على أنه مزيّة اختصَّ بها النبيُّ نفسَه[1].

وعندما نرجع إلى كلامِه عز وجل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ نجده مسبوقًا بقوله: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ

---

١ - لم يكن هذا مجرد تخمين أو حدس أو تحليل، بل كان أمرًا واقعًا حدث في مواقع ومفاصل تاريخية عديدة، ومثاله صاحب آية: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَافِرينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾[سورة المعارج: ١-٢]. وقصّتها أنَّ النبيَّ بعد أن نادى في الناس واجتمعوا إليه في غدير خُمّ، أخذ بيد عليٍّ وقال: «مَن كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه»، شاع الخبر وطار في البلاد، فبلغ ذلك الحارث بن النعمان الفهري، فأتى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على ناقة له حتّى أتى الأبطح، فنزل عن ناقته وأناخها وعقلها، ثمّ أتى النبيّ وهو في ملأ من أصحابه، فقال: يا محمّد أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّك رسول الله فقبلنا، وأمرتنا أن نصلّي خمساً فقبلناه منك، وأمرتنا بالزكاة فقبلنا، وأمرتنا أن نصوم شهرًا فقبلنا، وأمرتنا بالحجّ فقبلنا. ثمّ لم ترضَ بذلك حتّى رفعت بِضَبْعَي ابن عمّك فضّلته علينا وقلت: «مَن كنت مولاه فعليٌّ مولاه» فهذا شيء منكَ أم مِن الله؟ أجاب النبيّ: والذي لا إله إلاّ هو إنّ هذا من الله. فولّى الحارث بن النعمان يريد راحلته، وهو يقول: اللهمّ إن كان ما يقوله حقّاً فأمطِر علينا حجارة من السماء أو آتنا بعذابٍ أليم. فما وصل إليها حتّى رماه الله بحجر، فسقط على هامته وخرج من دبره، فقتله، وأنزل الله فيه الآية أعلاه. (راجع: محمد بن عاشور الثعلبي: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ج١٠، ص٣٥).

وَاخْشَوْنِ﴾، وهذا له دَلالته الواضحة في أنَّ الخطرَ الأكبرَ والأعظمَ على حركة الدين الإسلامي يأتي من المنافقين والمتعصبين أنفسهم قبل غيرهم، وتأكيدًا عليه كان قوله تعالى في الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾. حيث يأمره أمرًا بالإبلاغ، حيثُ إنَّها أتت في سياقٍ تهديديٍّ من جهة ومواساة من جهة أخرى. وفحوى التهديد واضحة، ويقوم على أنَّك أيها النبي إنْ لم تقم بتبليغ مضمون رسالة الله تعالى، فإنَّ كلَّ جهودك وأفعالك تذهب هباءً وتصبحُ بلا أي طائل، كما أنَّ الآيةَ نفسَها تقوم بمواساة النبي، لكي لا يخاف الناس ولا يخشاهم أبدًا: ﴿**وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾.

وعندما نرجع إلى قوله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ**﴾ نجد أنَّ على الرسول الكريم ألَّا يخاف من الكفار ولا المشركين، لأنَّ اللهَ معه، وهذا ما يتوضح لنا من خلال قوله -تعالى-: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ**﴾، حيث إنَّ الرسولَ كانت لديه حالة خوف وقلق من المنافقين، بما يعني أنَّ منبع الخشية والخوف داخلي من عمق المجتمع الإسلامي.

وأمَّا عن السرِّ في عدم وجود إعلان وتصريح واضح في القرآن باسم الإمام عليّ ﷷ، فيجب أن نُلاحظَ أنَّ هناك نصوصًا قرآنيَّةً عديدةً تدفع الإنسان للتفكير والتأمل والتدقيق، وإدراك أنَّ ثمةَ أمرًا ما، وعندما يستعين

الإنسان بالمنقولات المتواترة يثبت لديه ذلك الأمر، ومنها قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[المائدة: ٥٥]. فهذه الآية تشير إلى أنَّ ثمةَ شخصًا أعطى الزكاةَ وهو راكعٌ، ومن دون أن يصرح عن اسمه[١]، والسبب في عدم التصريح هو الخشية من اندلاع تمرد (وهو حالة قلق كانت ناشئة في المجتمع الإسلامي ضد أي توجه بخصوص أهل البيت)، حيثُ إنَّه لو وقع التمرُّدُ في مواجهة الإعلان الواضح والتَّصريح الحقيقي بإظهار الاسم،

---

١ - ذكر (الفخر الرازي) في تفسيره: روى عكرمة عن ابن عباس أنّ الآية نزلت في علي. كما روي عن عبد الله بن سلام، قال: لمّا نزلت هذه الآية قال: «يا رسول الله، أنا رأيت عليًّا تصدّق بخاتمه على محتاج وهو راكع، فنحن نتولّاه». وروي عن أبي ذر قال: «صلّيت مع رسول الله ﷺ يومًا صلاة الظهر فسأل سائل في المسجد، فلم يُعطه أحد، فرفع السائل يده إلى السماء، فقال: اللهمّ اشهد أني سألت في مسجد الرسول(ص)، وما أعطاني أحد شيئاً، وعليٌّ كان راكعاً فأومأ إليه بخنصره اليمنى وكان فيها خاتم، فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم، فرأى النبيّ ﷺ ذلك، فقال: اللهمّ إنّ أخي موسى سألك فقال: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ إلى قوله ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ فأنزلت: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ اللهمّ وأنا محمّد نبيّك وصفيّك، فاشرح لي صدري، ويسّر لي أمري، واجعل لي وزيراً من أهلي عليّاً اشدد به أزري. قال أبو ذر: فو الله ما أتمَّ رسول الله صل ﷺ هذه الكلمة حتى نزل جبرئيل عليه السلام فقال: يا محمّد اقرأ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾«. (راجع: محمد بن عمر الفخر الرازي: التفسير الكبير، ج١٢، ص٢٦).

كان سيُنظَرُ إليه من قبل أيٍّ كان -صديقًا كانَ أم عدواً- على أنَّه مظهر للتمرّد ضدّ الإسلام وضد كتاب الله، ولهذا استعمل القرآنُ الكنايةَ وتمَّ التعبير عن المراد بصيغة يفهم من خلالها أيُّ إنسان، لا يشوبه الغرض أنَّ وراء الآيةِ أمرًا يُشير إلى قضيَّة بعينها، فقول الله -عزّ وجل-: ﴿**الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾ يُعبِّر حقيقةً عن حالة ووضع استثنائي، حيثُ يُشير إلى واقعة غير طبيعية وقعت، وكلمة المسلمين اجتمعت على أنَّ الآيَةَ نزلت بشأن عليّ بن أبي طالب[1].

١ - أخرج الطبراني في الأوسط، وابن مردويه عن عمّار بن ياسر، قال: «وقف بعليٍّ سائل وهو راكع في صلاة تطوّع، فنزع خاتمه فأعطاه السائل، فأتى رسول الله ﷺ، فأعلمه ذلك، فنزلت على النبيّ هذه الآية: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾ فقرأها رسول الله ﷺ على أصحابه، ثم قال: من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، اللّهم والِ مَن والاه وعادِ من عاده». (راجع: جلال الدين السيوطي: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ج٢، ص٢٩٣).

الفَصْلُ السَّابِعُ: الإِمَامَةُ فِيْ القُرْآنِ

الإِمَامَةُ فِيْ المَفْهُومِ الشَّيْعِيِّ

المَبْحَثُ الأَوَّلُ:
الإِمَامَةُ فِيْ الوَعْيِّ الشِّيْعِيّ عَلَىْ ضَوءِ الآيَاتِ القُرْآنِيَّةِ

الإمامةُ لدى مدرسة الخلافةِ (السُّنَّة) هي الحكم والحكومة، والإمامُ هو الحاكمُ الذي يصل للقيادةِ بالانتخاب بعد أن يبايعَه وينتخبه المسلمون، لكن عند الشيعةِ -أتباع مذهب أهل البيت- الأمر مختلف، فالإمام لا يُنتخب بل يُعينَّ تعيينًا، لأنَّ الإمامةَ عندهم أرفع من بعض درجات النُّبوةِ. وأئمة أهل البيت أفضل من كثير من الأنبياء خاصةً وأنَّ الأنبياءَ «أولو العزم من الرسل» هم الذين جمعوا الإمامة إلى النبوّة، وكثير من الأنبياء لم يكونوا أئمّةً، أمَّا أولو العزم فقد بلغوا مرتبة الإمامة في آخر المطاف. وبهذا الفهم لمسألة الإمامة يتَّضح كون الحكومة شأنًا من شؤونها.

وهناك آية في كتاب الله -تعالى-، تتعلق بموضوع الإمامة مباشرة، وتتحرك على المعنى ذاته الذي يعيه ويفهمه الشيعة في موضوع الإمامة، تقول الآية: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي**

الظَّالِمِينَ﴾[البقرة: ١٢٤].

فهذه الآية الكريمة تتحدث عن عدة أشكال وأنماط من الابتلاءات التي نزلت بسيدنا إبراهيم عليه السلام.

ومن هذه الابتلاءات العظيمة أنَّ الله -تعالى- رزقه بولد وهو شيخ كبير من زوجته (هاجر)، ومن ثم جاءه الأمرُ الإلهي بأنْ يتركَ الحجاز ويرحل إلى الشام، بما يعني أنَّه كان عليه أنْ يتركَ زوجتَه وولدَه وحدهما في الحجاز، فسلَّم أمرَه لله تعالى، رغم المصاعب، يقول عز وجل: **﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ﴾**[إبراهيم: ٣٧]. ثم جاء الابتلاء الثاني وهو الأمر الإلهي بذبح ولده إسماعيل في منطقة «مِنى» بالحجاز، وهو المكان نفسه الذي يقوم الحجاج حاليًا بتقديم الأضاحي والقرابين لله تعالى، حيثُ إنَّه وبعد أن تكررَ أمرُ اللهِ عليه بالذبح لعدة مرات خلال الرؤيا، تحدثَ لولده عن رؤياه، فما كان من الابن إلَّا أن طلبَ هو من أبيه بأنْ يصدعَ لأمرِ اللهِ، يقول عز وجل: **﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾**[الصافات: ١٠٢].

حيثُ نجد كيف أنَّ القرآنَ يقدم لنا صورةً ولوحةً غايةً في الجمال والدهشة، يقول تعالى: **﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾**]الصافات: ١٠٢]، أي حينما أمضيا الأمر، بحيثُ لم يشكّ إبراهيم أنَّه فاعلٌ وأنَّه ذابحٌ ولده لا محال، وأيقن إسماعيلُ أنَّه مذبوحٌ. ولمَّا هَمَّا بتنفيذ الأمر بمنتهى الاطمئنان واليقين جاءهما النداءُ: **﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ**

الرُّؤْيَا﴾[الصافات: ١٠٤-١٠٥].

يمكننا القول بعد استعراض معاني الابتلاءات أنَّ الآيات القرآنية كانت غاية في الوضوح، لجهة حديثِها أيضًا عن موضوع الإمامة يقول النص: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾[البقرة: ١٢٤]، فالإمامة وُهبت للنبي إبراهيم ولنسله من بعده فقط، وهي أتت بعدما تحققت ونزلت وتمّت عليه الابتلاءات.

فالإمامةُ هي الهَدِيَّةُ التي أهداها الله تعالى لإبراهيم في آخر عمره الشريف، وهو موقعٌ ومنصبٌ مستقلٌ عن النُّبوة، قوله تعالى: ﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا**﴾.

نعم، كان إبراهيم نبيًّا ورسولاً، ولكنه بعدما خضع للابتلاءات، ونجح فيها، وطوى مراحلها كافة، أعطاه هبة جديدة هي الإمامة.

المَبْحَثُ الثَّاني: الإَمَامَةُ فِيْ مَنْطِقِ القُرْآنِ

عندما نتحدثُ عن الإمامة، فنحن أمامَ صفةٍ جامعةٍ مانعةٍ للإنسان الكامل المتكامل على طريق الإيمان العميق والراسخ بالله تعالى، الإنسان الكامل الذي تحول نتيجة لهذا الإيمان العملي الحقيقي إلى قدوة وأسوة

للآخرين، والملاحظ أنَّ النبيَّ إبراهيم عليه السلام الذي نفذ ما طَلبه -تعالى- منه، اختبارًا وابتلاءً، وبعد أنْ جعلَ اللهُ -تعالى- الإمامةَ له، دعا اللهَ أنْ يجعلَها في نسلِه وذُرِيته في أن: ﴿**لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾.

والعهد هنا هو الإمامة، ولهذا ذهب جمهور الشيعة إلى أنَّ الإمامةَ قضيَّةٌ كبرى وعظيمة إلى حد أنَّها مرتبطة بالله تعالى، في وصفه لها بأنَّها عهدٌ منه لبعض الناس ممن يصطفيهم ويختارهم.

ولم يجب -تعالى- إبراهيم عن سؤاله: ﴿**وَمِن ذُرِّيَّتِي**﴾ بالنفي المطلق، كما أنَّه لم يقدم له تأييدًا مطلقًا، بل تحدَّثَ عن نوعين ونمطين من الذُّريةِ، مستبعدًا منهم فئة الظالمين. وهذه الآية تدلُّ على بقاءِ الإمامة في ذريّة إبراهيم إجمالًا، مع الأخذ بالاعتبار أنَّه توجد في كتاب الله نصوصٌ أخرى على ذات السياق، يقول فيها عز وجل: ﴿**وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾[الزخرف: ٢٨]، وهي في إبراهيم عليه السلام أيضًا، وفيها دلالة على أنَّ الإمامةَ حقيقةٌ باقيةٌ في نسل إبراهيم عليه السلام.

وصفة الظالم تطلق على الإنسان الذي يعتدي على حقوق الناس، ويتجاوز على كراماتهم، وينتهك قِيمهم، و... ولكنَ القرآنَ يَعتبر أنَّ الإنسانَ الذي يظلمُ نفسَه، ويقمعُها، ويحلل لها ما حرم الله، ويحرمُ عليها ما حلله، هو إنسانٌ ظالمٌ أيضًا. وهنا ينقل الفيلسوف الراحل السيد (محمد حسين الطباطبائي) كلامًا عن أحد أساتذته حول ما سأله إبراهيم عليه السلام لذرّيته، وهو يرى أنَّ مآل هذه الذرّية من حيث صلاحِها وفسادِها ينتهي إلى الفَرَضيَّات الآتية:

الأُولَى: أنَّ نفترض أنّ هذه الذرّية ظالمة على الدوام من أوّل عمرها إلى آخره.

الثَّانِيَّةُ: أن نفترض أنّها كانت ظالمة في أوّل عمرها ثم آلت إلى الصلاح آخر العمر.

الثَّالِثَةُ: أن تكونَ صالحةً أوَّل عمرها، ثم آلت إلى الظلم بعد ذلك.

الرَابِعَةُ: أنَّها لم تكن ظالمة في أيّ وقت من الأوقات.

ثمّ يقول: من المُحال أنْ يطلبَ إبراهيم عليه السلام الإمامة -وهي بهذا الشأن العظيم، حيث وهبت إليه بعد النبوّة والرسالة- لمن كان ظالماً من ذريَّته من أوَّل أمره حتى آخر حياته، كما من المحال أنْ يسألها لمن كان من ذريّته صالحًا في مبدأ حياته ثم آل إلى الظلم آخر عمره، يبقى إذًا أنّ إبراهيم عليه السلام عندما طلب الإمامة لذرّيته، طلبها للصالحين منهم. وهؤلاء على قسمين، الأوَّل: من لازَم الصلاح من أوّل حياته وبقي على ذلك حتّى آخر عمره. والثَّانِي: من كان ظالماً في مبدأ حياته ثم آل إلى الصلاحِ بعد ذلك، ولكنَّ القرآنِ يقول: ﴿**لاَ يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ**﴾، أي ينفي أن ينالَ الإمامةُ من كانت له سابقة ظلم[1].

إنَّ الإمامةَ في نَظَرِ القرآن والإسلام هي ملك لمن كان عادلاً، لم يتجاوز على نفسه ولا على غيره. سواء قبل دخوله الإسلام وبعد دخوله إليه. ولهذا من المستحيل أن تكون الإمامةُ فيمن أمضى عهدًا من عمره في الشرك والكفر بالله، والتعبد في محاريب الأصنام والأوثان.

---

١ - راجع: محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان، ج١، ص٢٧٤.

الفَصْلُ الثَّامِنُ: الإِمَامَةُ فِي الحَدِيثِ

ضَرُورَةُ الإِمَامَةِ وَصِفَاتُ الإِمَامِ

المَبْحَثُ الأَوَّلُ:
مَاهِيَّةُ الإِنْسَانِ الأَوَّلِ فِيْ النَّظْرَةِ المَادِّيَّةِ

تَحفلُ المجتمعاتُ البشريةُ بأشكالٍ وصور شتى من الأفكارِ والقناعات والأيديولوجيات والرؤى الحياتية حول كثيرٍ من المواضيع والقضايا، ومن جملتها وجود نظرة مادية للحياة والإنسان والوجود ككل، فهناك مثلاً من يعتقد اعتقادًا جازمًا أنَّ الإنسانَ هو كائنٌ ماديٌّ شكلاً ومضمونًا، وهو مثل أي كائن حي آخر، لا همَّ له سوى الأكل والشرب والجنس وأداء وظائف جسدية ماديَّة فقط.

والنتيجة التي يؤدي إليها هذا الاعتقاد أو التصور هي أنَّه لا يوجدُ إطلاقًا أيُّ عنصرٍ أو عاملٍ آخر سوى العناصر والعوامل المادية التي تدخلُ في أصل وبِنية هذا النّسيج الوجوديّ لهذا الكائن، كما أنَّ كلَّ الانعكاسات الأخرى لهذا الإنسان في ممارساته وتصوراته وقِيَمه وثقافته وفعالياته الروحيَّة والمعنويَّة والذوقيَّة وغيرها، ما هي إلاَّ بناء فوقي للأرضية المادية التي ينطوي عليها هذا الموجود المُسمَّى «إنسان».

وإذا ما استمررنا في السعي وراء هذا المنطق المادي الحسي

والتجريب الذي لا يُرى سوى بالعينِ والمشاهدة العينية، فإنَّه يجب على الكائنِ البشريِّ الأول -منذ بداية فجر الخليقة- أنْ يكونَ في أدنى الدرجاتِ والمراتب الإنسانية، ثم انطلق وبات أكثرَ كمالاً كلما امتدت به حلقات الحياة وسبلها، تقدُّمًا نحو الأمام.

وبهذا المَنْطِقُ وَالمعنى، ليس ثمةَ فرقٌ كبيرٌ، بين أن نأخذَ بالاعتبار التصوُّرَ الذي يقول بخلق الإنسان من الأرض مباشرة، وبين التصوُّر المعاصر الذي يذهب إليه بعضُ السّادة، ويُصاغ فرضيَّة فحواها أنَّ الإنسانَ الأوَّلَ كائنٌ تمَّ انتخابه واصطفاؤه من كائنات وموجودات أدنى منه درجة وجودية، ومتحوّل عن طبقات «سلالات» أدنى وأوطأ، بحيث ينتهي أصله إلى هذه الأرض، لا أنَّه منبثق من الأرض مباشرة.

المَبْحَثُ الثَّاني: ماهِيَّةُ الإِنْسَانِ الأَوَّلِ فِيْ القُرْآَنِ الكَرِيْمِ

أَوَّلًا- الإِنْسَانُ وَالسُّجُودُ المَلَائكيّ:

لا يوجدُ نصٌّ ديني احترم الإنسانَ وأعطاه وجودَه الحقيقي، ونظر إليه نظرةً تكامليَّةً، كالنَّصِّ القُرْآنيّ، فقد وردتْ الكثير من الآيات الكريمة التي تنظر للإنسان كخليفةٍ لله على الأرض، أي أنَّها تعطيه مكانةً ساميَّةً ومقامًا عاليًا ورفيعًا، يكادُ يقتربُ من مَقَام النُّبوة.

يقول -تعالى- في محكم كتابه العزيز واضعًا الإنسان في مقام شامخ عظيم: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ* وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء**﴾[البقرة: ٣٠-٣١].

وعندما يقولُ -تعالى- بخصوص الإنسان الأوّل: ﴿**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي**﴾[البقرة: ٣٠-٣١]، فهو يعطينا فكرةً عن وجودِ عنصرِ روحي علوي غيرِ ماديّ داخل في تركيبة هذا الإنسان. أي أنَّ بِنيَةَ هذا الموجود، تنطوي على بُعد مادي وآخر معنوي غير مادي، يختصُّ بشيءٍ من عند الله، يقول -تعالى-: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾.

وهناك كلمات وأحاديث وردت عن أئمةِ أهل البيت عليهم السلام تخصُّ موضوع الإمامة، تستند على هذا المبدأ الروحي الأصيل في الإنسان، وذلك في إطار المعنى الذي يشير ويدلل على أنَّ الإنسانَ الأوَّل تمكن من حمْل الخصائص والسمات المشار إليها سابقًا، وسيأتي لاحقًا الإنسانُ الأخيرُ -في حركة الخليقة-، ليكون مالكًا لتلك المواصفات والخصائص نفسها. وبين الإنسان الأوَّل والإنسان الأخير لن يخلوَ العالمُ الإنسانيُّ أبدًا من كائنٍ بشريّ من هذا الطِّراز، يحمل روحَ: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾. هذا في الأساس، هو المحور في قضيّة الإمامة.

يتفرّع على الأصل الآنف أنْ يكونَ سائرُ أفرادِ النَّوع الإنسانيّ وكأنَّهم

في وجودهم فرعٌ لوجودِ ذلك الإنسانِ، بحيثُ إنْ لم يوجدْ مثل ذلك الإنسان، فلن يكون متاحًا أبدًا وجود بقيّة أفراد النَّوع البشريّ.

مثل هذا الإنسان يُعبرَّ عنه بـ«حُجَّة الله»، وهو المعنيُّ بالقول: «اللَّهُمَّ بَلَى لَا تَخْلُو الأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ لِلَّهِ بِحُجَّةٍ» الوارد في نهج البلاغة، وفي كُتُبٍ كثيرة أُخرى[١].

ثَانِيًا-ضَرُورَةُ الإِمَامَة فِيْ كَلِمَاتِ الإِمَام عَلِيّ عليه السلام:

جاء في الرُوايةِ عن (كُميلِ بن زياد) أهم تلَامذة الإمام علي:

"أخذ بيدي أميرُ المؤمنين عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام، فأخرجني إلى الجبَّان، فلمَّا أصحر، تنفَّس الصعداء، ثم قال: يا كميل بن زياد، إنَّ هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها، فاحفظ عنّي ما أقول لك". ثم قسَّم له الناس أوّلًا وفق التصنيف الذي عُرف عنه، فقال: "النَّاسُ ثَلَاثَةٌ: فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، ومُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ، وهَمَجٌ رَعَاعٌ...»[٢].

والمراد الذي يؤشر عليه ويعنيه الإمام علي عليه السلام من مصطلح "العالم الرباني" هو العالم الذي يكون ربَّانيًا صدقًا وحقًّا وعدلًا وخالصًا في توجهه إلى الله عز وجل، وهذا التوصيفُ ربمَّا لا يتمثله سوى الرسل والأئمّة، وأمَّا الصِنفُ الثَّاني "متعلمون على سبيل نجاة" فهم تلامذةُ الصِنفِ الأَوَّلِ.

---

١ - الشريف الرضيّ: نهج البلاغة، ص٤٩٧، الحكمة رقم ١٤٧،.

٢ - الشريف الرضيّ، نهج البلاغة، ص٤٩٦، الحكمة ١٤٧.

أمَّا الصّنفُ الثَّالِثُ، فهم همجٌ رعاعٌ، جاء في وصف الإمام لهم أنَّهم: "لم يستضيؤوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق".

ثمَّ يبدأ أميرُ المؤمنين (عليه السلام) بعد ذلك يشكو أهلَ الزَّمان، وأنَّه يحمل علمًا كثيراً لا يُصيب له حملة: "هَا إِنَّ هَاهُنَا لَعِلْمًا جَمًّا -وأَشَارَ بِيَدِه إِلَى صَدْرِه- لَوْ أَصَبْتُ لَه حَمَلَةً»، بَيْدَ أنَّه سرعان ما يُشير مستدركًا إلى أنَّه أصاب من الرّجال من كان لقِنًا يفهم بسرعة، ولكن لا يُؤمَنُ عليه، لاستعماله آلة الدّين للدُّنيا.

وإلى جوارِ هذه الفئة، يُشير الإمام(عليه السلام) إلى فئة أُخرى، وإن بدت حسنةً في انقيادها لحمَلة الحقّ، إلَّا أنَّها لا بصيرةَ لها، تنساق وراء التّقليد، فلا تستوعب ما يُلقى إليها، أو أنَّها تُخطئ في التَّلقّي فيُسارع إليها الشكّ[1].

يبدو كلامُ الإمام حتى الآن أنَّه يبعث على اليأس تقريبًا من العثور على حمَلة للعلم. ولكنَّه يعود في نهاية حديثه إلى (كميل بن زياد) للاستدراك بالقول: "اللَّهُمَّ بَلَى، لَا تَخْلُو الأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ لِلَّه بِحُجَّةٍ، إِمَّا ظَاهِرًا مَشْهُورًا وإِمَّا خَائِفًا مَغْمُورًا، لِئَلَّا تَبْطُلَ حُجَجُ اللَّه وبَيِّنَاتُه، وكَمْ ذَا وأَيْنَ أُولَئِكَ أُولَئِكَ واللَّه الأَقَلُّونَ عَدَدًا، والأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللَّه قَدْرًا، يَحْفَظُ اللَّه بِهِمْ

---

١ - يقول الإمام علي (عليه السلام) في إشارة منه إلى هاتين الفئتين: «بَلَى أَصَبْتُ لَقِنًا غَيْرَ مَأْمُونٍ عَلَيْه، مُسْتَعْمِلاً آلَةَ الدِّينِ لِلدُّنْيَا، ومُسْتَظْهِراً بِنِعَمِ اللَّه عَلَى عِبَادِه وبِحُجَجِه عَلَى أَوْلِيَائِه، أَوْ مُنْقَادًا لِحَمَلَةِ الْحَقِّ لَا بَصِيرَةَ لَه فِي أَحْنَائِه، يَنْقَدِحُ الشَّكُّ فِي قَلْبِه لأَوَّلِ عَارِضٍ مِنْ شُبْهَةٍ، أَلَا لَا ذَا ولَا ذَاكَ». (الشريف الرضيّ: نهج البلاغة، ص٤٩٦، الحكمة ١٤٧).

حُجَجَه وبيِّنَاته حَتَّى يُودِعُوهَا نُظَرَاءَهُمْ، ويَزْرَعُوهَا في قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ، هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الْبَصِيرَةِ، وبَاشَرُوا رُوحَ الْيَقِينِ واسْتَلانُوا مَا اسْتَوْعَرَه الْمُتْرَفُونَ، وأَنِسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْه الْجَاهِلُونَ، وصَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالْمَحَلِّ الأَعْلَى»[١]. وهذا يعني أنَّ الإمامَ أو الحُجَّةَ (حُجَّةُ الله) لا يمكن أَنْ يرحلَ عن الدنيا من دون أن يُبلّغ ما أُمرَ به، في أنْ يتحدثَ ويعلن ويقول ما لديه، وينقله إلى قلوب أشباهه الذين يتحلّون بالصفات السابقة.

ثَالثًا- الإِمَامَةُ وَخَصَائِصَ الإِمَام فِيْ كَلِمَات الإِمَام عليّ عليه السلام:

يتحدَّثُ الإمام عليٌّ عليه السلام عن أولئك الذين يتلقّون من مبدأ ملكوتيّ أعلى، قائلاً: "هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة». فالعلم هو الذي جاءهم وقُذف في عقولهم وقلوبهم، وهذا ما يعني أنَّ علمَهم مُفاضٌ منه -تعالى-، وبصيرتهم واعية ومفتوحة، فلا يُداخل هذا العلم أيَّ مظهرٍ من مظاهرِ الارتكاب والخطأ والاشتباه، أو النقص. وعندما يقول عليه السلام: «وباشروا روح اليقين» فهذا يُفيدنا بأنَّ لهم اتَّصالاً -على نحو ما- بالعالم الآخر. إنَّهم كَمَال البشرِ في انفتاحهم على الله، في أُلفتهم معه، واستئناسهم بحقيقته، حتى أنَّ صفتَهم هي أنَّهم: «أنسوا بما استوحش منه الجاهلون».

---

١ - الشريف الرضيّ، نهج البلاغة، ص٤٩٧، الحكمة ١٤٧.

نعم، إنَّهم يعيشون مع الناس، في واقع مجتمعاتهم، كأجسادٍ تتحرك، ولكنَّ نفوسَهم وأرواحَهم العظيمةَ الساميةَ تنظر لأعلى وتهفو لآفاقٍ أرفع، وهي معلَّقةٌ بالمحلّ الأعلى. فالنَّاسُ تتصوّرهم وهم معهم، أنَّهم بشرٌ مثلُهم، إلَّا أنَّهم لم يخبروا باطنَهم: "وصحبوا الدُّنيا بأبدانٍ أرواحها معلَّقة بالمحلّ الأعلى»... وهذا هو المنطق الذي تتجلى فيه ومن خلاله حقيقة الإمامة وجوهره ولبّها، وقد جاء في كتاب «الحُجَّة» من «الكافي»، بابٌ بعنوان: «أنّه لو لم يبقَ في الأرض إلَّا رجلان لكان أحدهُما الحُجّة»[١]. أي يكون أحدهما إنسانًا في مثل هذه الصفات، تمامًا كما كان أوَّلُ إنسانٍ وطأت قدماه الأرض.

إذًا المسألة الأساسيَّةُ هنا، هي أنَّ بقيَّةَ قضايا هذا الباب -من قبيل أنَّه يجب على الإمام أنْ يحكمَ بالعدل بين النَّاس، أو أن يكونَ مرجعًا لاختلافاتهم في أُمور الدين- إنَّما تأتي لتكون فرعًا لذلك الأصل وتابعةً وقائمةً به، وليس العكس، أي لا يُصار إلى وجوب الإمام وضرورة الإمامة، من واقع حاجة الناس إلى حكم الإمام. ومن هنا فإنَّ ضرورةَ الحكمِ لا تُولّد ضرورةَ الإمامِ، بل إنَّ الإمامةَ أرفع شأنًا وأجلُّ مقامًا من هذا الكلام. وفق هذا المنطق، تعود هذه المسائل -كمسألة الحكم وما شابهها- لتُصبح استفادات استتباعيّة تنطلق من مثل تلك الإمامة[٢].

١ - راجع: محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج١، ص١٧٩.

٢ - مرتضى مطهّري، الإمامة، ص٢١٨-٢٢٠.

رَابعًا- ضَرُورَةُ الإمَامِ وَخَصَائِصُهُ فِيْ كَلِمَاتِ الإمَامِ جَعْفَر الصَّادِق (عليه السلام):

جاءَ في رُوايةٍ عن الإمام جعفر بن موسى الكاظم (عليه السلام)، أجاب فيها عن سؤال سأله إياه رجل زنديق، حيثُ سأله: "من أين أثبَتَّ الأنبياء والرسل؟ فأجابه الإمام مرتكزًا على معنى التَّوحيدِ ومنطلقًا منه: إنّا لمَّا أثبتنا أنَّ لنا خالقًا صانعًا متعاليًا عنَّا وعن جميع ما خلق، وكان ذلك الصَّانعُ حكيمًا متعاليًا لم يجز أن يُشاهدَه خلقُه، ولا يُلامسوه، فيُباشرهم ويُباشروه، ويُحاجّهم ويُحاجّوه، ثبت أنَّ له سفراء في خلقه، يُعبرّون عنه إلى خلقه وعباده، ويُدلُّونهم على مصالحهم ومنافعهم وما به بقاؤهم وفي تركه فناؤهم، فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه»[١].

من خلال هذا النَّصِّ الإمامِيّ نَفهم أنَّه ينبغي أنْ يوجدَ إنسانٌ له -من جهة- خاصّيَّة أو ميزة الاتّصَال بالله اتّصالاً يُمكّنه من تَلقّي الوحيّ، ويكون بمقدورنا من -جهةٍ ثانيةٍ- أنْ نَتَّصِلَ به ونباشره ونتعامل معه، ومن صفةِ هؤلاء أيضًا: «حكماء مؤدَّبين بالحكمة، مبعوثين بها، غير مشاركين للناس على مشاركتهم لهم في الخلق». أي أنَّ هؤلاء «الأئمة» يشتركون مع الناس بمواصفات خَلْقية تركيبيّة، ولكنَّهم يفترقون عنهم في أنَّ لديهم جانبًا آخرَ روحيًّا عُلويًّا. وفي شطرٍ آخر من كلامه يقول الإمام (عليه السلام) في صفتهم:

---

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج١، ص١٦٨، كتاب الحجة، باب الاضطرار إلى الحجة، ح١.

«مؤيَّدين من عند الحكيم العليم بالحكمة». ثمّ يُشير الإمام الصادق إلى ضرورة ولزوم وجود هذه الوسائط في كلّ زمان، يقول: «ثمَّ ثبت ذلك في كلّ دهر وزمان» لماذا؟ «لكي لا تخلو أرضُ اللهِ من حُجَّةٍ يكونُ معه عِلمٌ يدلُّ على صدقِ مقالته وجواز عدالتِه»[١].

خَامِسًا- إِمَامَةُ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلِيّ بنِ أَبِي طَالِب فِيْ الحَدِيثِ:

جاء عن الرسولِ الكريمِ ﷺ في خطابٍ موَجَّهٍ لأصحابه: «سلِّموا على عليٍّ بإمرة المؤمنين»[٢]. وهذا النَّصُّ يتصل مباشرة بواقع يوم الغدير.

معلومٌ أنَّ مقولَةَ الإمامِ عليّ الواردةُ في حديث الغدير التي يقول فيها: "من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه»[٣]. وردت بشكلٍ منفصل، وأتباع مدرسة الخلافة لا يؤمنون بتواتر هذا النَّصّ عن الرسول الكريم، وأنَّه قال: "سلِّموا على عليٍّ بإمرة المؤمنين".

وقد جهد وبذل كثيرٌ من العلماء والمصنفين والموسوعيين، من كبار أساتذة الحوزات والجامعات، لإثبات أنَّ الحديثَ صحيحٌ ومتواترٌ. ومن

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج١، ص١٦٨.

٢ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج١، ص٢٩٢، كتاب الحجة، باب الإشارة والنص على أمير المؤمنين(ع)، ح١.

٣ - لمزيد من البحث حول مصادر حديث الغدير، ننصح بمراجعة: عبد الحسين الأميني: الغدير في الكتاب والسنة والأدب، ج١، ص١١.

النُّصوص الأُخرى الدَّالَّة على إمامةِ أمير المؤمنين عليه السلام، قول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لعليّ عليه السلام: "أنت الخليفةُ بعدي»[١]،[٢].

١- وَاقِعَةُ يَومِ الإِنْذَارِ:

ثمّة واقعةٌ أخرى ترتبط بأوائلِ البعثة، حين نزل على النبيّ الأكرم قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، حيث لم يكن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم قد أعلن رسالته وأشهر دعوته بين النَّاس على وجه العموم، وكان الإمامُ عليّ عليه السلام ما يزال فتىً يعيش مع النَّبيّ في بيته، يروي العديد من أهلِ السِّيَرِ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا عليًّ عليه السلام، وقال له: «يا عليّ، إنَّ اللهَ أمرني أنْ أُنذِرَ عشيرتي الأقربين، فاصنع لنا صاعًا من طعام، ثمَّ اجمع لي بني هاشم وبني عبد المطّلب، أعدَّ عليٌّ غذاء القوم، وكان لحم شاة وعسًّا (قدح كبير) من اللبن. لمَّا أكلوا وشبعوا وأراد النبيّ أن يُحدّثهم بادره أبو لهب إلى الكلام، فقال: لقدّ ما (لشدّ ما) سحركم صاحبكم، فتفرَّق القوم ولم يُكلّمهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أمر النبيُّ عليًّا من الغد أن يُعِدَّ الطَّعام ثانيًّا ويجمع القوم ليُحدِّثهم، ففعل عليٌّ ما أمره به النبيّ، يقول عليه السلام: فعلت ما أمرني به، ثمّ دعوتهم له، وهم يومئذ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصونه، حتى إذا ما أكلوا وشبعوا بأجمعهم، تحدَّث إليهم رسول

---

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج٢٣، ص١٢٥؛ ج٢٦، ص٣٤٩.

٢ - مرتضى مطهّري: الإمامة، ص١٠٨-١١١.

الله ﷺ بقوله: إنيّ والله ما أعلم شابًّا في العرب جاء قومَه بأفضل ممَّا قد جئتكم به. إنيّ قد جئتكم بخير الدُّنيا والآخرة، وقد أمرني الله -تعالى- أنَّ أدعوكم إليه، فأيُّكم يؤازرني على هذا الأمر على أنْ يكونَ أخي ووصيّي وخليفتي فيكم؟ أحجمَ القومُ عنه جميعًا غير عليّ عليه السلام. فأعادَ عليهم رسول الله ﷺ، فأحجموا أيضًا ولم يُجِبْه إلاَّ عليٌّ. فأخذ النبيُّ ﷺ برقبته، ثمَّ قال: 'إنَّ هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم'»[1].

٢-حَدِيثُ الغَدِيرِ:

يُعدُّ حديث الغدير من أهم الأحاديث المتواترة القوية التي رواها صحابيون كُثرٌ، والتي يُستدلُّ من خلالها على ولايةِ وإمامةِ أميرِ المؤمنينَ الإمامِ عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

ففي حجّة الوداعِ آخرِ حجَّةٍ للرسولِ الكريمِ ﷺ، دعا ﷺ النَّاسَ

---

١ - لمزيد من الاستزادة، يمكن مراجعة كل من المصادر والمظان التاريخية التالية:
-علي بن أبي الكرم (ابن الأثير): الكامل في التاريخ، ج٢، ص٦٢.
-محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)، ط٤، ج٢، ص٣١٩.
-ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج٣، ص٢٥٤.
-مبارك بن محمد (ابن الأثير): النهاية في غريب الحديث والأثر، ج٥، ص٢٥٠.
-محمد بن عمر (فخر الدين الرازي): التفسير الكبير، ج١٢، ص٢٦.
-جلال الدين السيوطي: الدرّ المنثور، ج٣، ص١٠٥-١٠٦.

للخروج معه إلى مكَّةَ في هذا الحجِّ، فاجتمع كثيرٌ منهم، وخطب بهم في مواقع مختلفةٍ، في المسجد الحرام وعرفات ومِنَى وخارج مِنَى وفي غدير خُم وغيرها من المواطن. ومن بين هذه الخطب، هي خطبته في غدير خُم، وقد كانت آخر الخطب وأكثرها شدَّة وكثافة. سأل النبيُّ ﷺ الجمعَ: «ألستُ أولى بكم من أنفسكم؟ -في إشارة إلى قول الله عز وجل-: ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ**﴾ [الأحزاب: ٦]، قالوا: بلى؛ قال: مَن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه»[١]. ومن الواضح أنَّ الرسولَ الكريمَ ﷺ أراد أنْ يُعطي لعليّ عليه السلام نفس الأولويَّة التي له على النُّفوس بحكم قوله عز وجل: ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ**﴾[٢].

٣-حَدِيثُ المنْزِلَة:

وهو من الروايات والأحاديث المهمَّة الواردة لتأكيد ولاية علي عليه السلام، وقد اهتمَّ به جمهرةٌ كبيرةٌ من العلماء، على رأسهم، (مير حامد حسين) في «العبقات» و(الأميني) في «الغدير». وقد قال الرسول الأكرم محمد ﷺ في حديثه هذا -موجهًا كلامه للإمام عليّ-: «أنت مِني بمنزلة هارون من موسى إلَّا أنَّه لا نبيَّ بعدي»[٣]. وتلك الكلماتُ قالها للإمام علّي الرسولُ

---

١ - محمد بن علي بن بابويه: الخصال، ج١، ص٣١١.

٢ - مرتضى مطهّري: الإمامة، ص١١٥-١١٦.

٣ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج٨، ص١٠٧، ح٨٠.

الكريمُ وهو ذاهب إلى غزوة تبوك التي لم يحدث فيها أي صراع أو قتال. وإنَّما كانت الغزوة عبارة عن تجمُّعٍ وتجهُّزٍ واستعدادٍ وتحرُّكٍ من قِبل الرسول ﷺ، انتهى من دون أيّ قتال. وكانت الغايةُ عنده ﷺ تكمن في إبراز قوة المسلمين، وإعلانه عن استعدادهم للقتال.

وتذكرُ الرواياتُ أنَّ الرسولَ الكريمَ استبقى الإمامَ عليًّا عليه السلام في المدينة المنورة، ولم يأخذه معه، وقد قال العلماءُ أنَّ سببَ هذا الاستبقاء يعودُ إلى العِلمِ المُسبَقِ له ﷺ بأنَّه لن يحدثَ أيُّ قتال.

وقد ضاقَ صدرُ الإمامِ عليّ عليه السلام ببقائِه في المدينةِ بعد أن أرجف المنافقون، وقالوا: ما خلَّفَه إلَّا استثقالاً له، فلمَّا لحق بالنبيّ ﷺ يخبره بمقالة المنافقين، وهو ما يزال في الجرف على أطراف المدينة، قال له النبيُّ ﷺ: «أما ترضى أن تكون (أنت) منّي بمنزلةِ هارون من موسى، إلَّا أنَّه لا نبيَّ بعدي»[1].

ومعنى الحديثِ واضحٌ وصريحٌ، وهو أنَّ كلَّ ما كان لهارون من قبل النبي موسى، فهو لعليّ بالنسبةِ إلى النبيّ ﷺ ما عدا النُّبوّة، وهنا يقولُ

---

١ - راجع: محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، ج٤، ص٢٤؛ وقد نص عليه في البخاري في: ج٥، ص٣: «إن رسول الله(ص) خرج إلى تبوك واستخلفَ عليًّا، قال: «أتخلّفني في الصبيان والنساء»؟ قال: «أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى، إلَّا أنَّه لا نبيَّ بعدي». وراجع: مسلم النيسابوري: صحيح مسلم، ج٤، ص١٨٧؛ وراجع: الهيثمي المكي: الصواعق المحرقة، ص١٢١.

القرآنُ حولَ مسألةِ موسى وهارون: ﴿**وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي**﴾ والوزير يعني المعين في الأصل، والوزْر يعني الثقل. فمراد موسى عليه السلام أن يتحمَّل عنه هارون عليه السلام شيئًا من الثِّقل، وقد ظهر فيما بعد تعبير «الوزير» في الاصطلاح المعروف لمعاون الملك.

لم يقتصر موسى عليه السلام على هذا الطلب، بل اقترح الوزيرَ فسمَّى أخاه، حيثُ قال عليه السلام فيما يُعبرِّ عنه بقيّة الذكر الحكيم: ﴿**هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي* وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي *كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا *وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا**﴾[طه: ٣٠-٣٤]، وفي موضع آخر من كتاب الله، نقرأ قول موسى عليه السلام لهارون بعد تلك الواقعة: ﴿**اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي**﴾[الأعراف: ١٤٢].

الفَصْلُ التَّاسِعُ

الإِمَامُ المَهْدِيُّ عجل الله تعالى فرجه الشريف وَتَغْيِيرُ العَالَمُ

تَمْهِيدٌ ضَرُوْرِيٌّ

تعتقَد مذاهبُ الإسلامِ كافةً بحتميةِ انتصارِ الحقّ وجبهةِ العدل والإيمانِ والسلامِ، على جبهة الباطِل الظلم والشر في هذا العالم، لأنَّه وعدٌ من الله، وسنةٌ كونيَّةٌ تاريخيَّةٌ أودعها -تعالى- في هذا الوجود، حيثُ ستنتهي في النهاية كلُّ الحروبِ والشرورِ والمظالمِ، ويسودُ العدلُ والسَّلامُ والازدهارُ، وتتحقَّقُ أُسُسُ المدينةِ الفاضلةِ على هذه الأرضِ. وهذه النهايةُ السعيدةُ ستكونُ على يدِ إمامٍ وشخصٍ مُقدسٍ من نَسلِ رسولِ الله ﷺ، فأجمعت أحاديثُ كلّ المسلمين ومرويّاتُهم تقريبًا على أنَّه المهديُّ المنتظرُ، حيثُ نلاحظُ أنَّ هذه الفكرةَ، تنطوي -قبل كلّ شيء- على نظرةٍ تفاؤليَّة تجاه المسيرِ العامّ للنّظام الطَّبيعيّ وتجاه مسيرةِ التّاريخ، وتبعثُ الأملَ في المستقبلِ، وتزيلُ كلَّ النّظراتِ التّشاؤُميَّة بالنّسبةِ إلى ما تنتظره البشريَّةُ في آخر تطلُّعاتها[1].

---

١ - مرتضى مطهّري: سلسلة تراث وآثار الشهيد مرتضى مطهّري-أنسنة الحياة في الإسلام، ص٤٠٢.

المَبْحَثُ الأَوَّلُ:
النَّظَرِيَّاتُ المُفَسِّرَةُ لِأَحْدَاثِ التَّارِيخِ

توجد على صعيد تفسير أحداث التاريخ، نظريتان، نستعرضهما سريعًا فيما يأتي:

أَوَّلًا: نَظَرِيَّةُ الصُّدْفَةُ:

يؤكد أصحابُها -وهم غالبًا من أتباع المنهج المادي في تفسير التاريخ- على أنَّ تحولات التاريخِ وأحداثَه هي عبارةٌ عن سلسلة من الصُّدفِ والاتّفاقاتِ، أي أنَّها لا تنضبط تحت قانون أو مُعطى أو قاعدةٍ ارتكازيَّةٍ محددةٍ.

ثَانِيًا: نَظَرِيَّةُ الوُجُودِ الاجتمَاعِيّ «أَصَالَةُ المُجتَمَع»:

تَرَى أنَّ المَجتمعَ له وجودٌ وشَخصيَّةٌ اعتباريَّةٌ مستقلَّةٌ عن الناس وحركة الأفراد. أي أنَّ شخصيَّةَ المجتمعِ ليست هي نفسها شخصية الأفراد، والشخصيَّة الواقعيَّة والحقيقيّة للمجتمع تكون عبارة عن دمج وتركيب مؤلَّف من الحالة التّفاعلية الثّقافيّة لكل الأفراد كسائر التَّراكيب المشهودة في الطَّبيعة، سواء أكانت طبيعة حية أم طبيعة جامدة.

المَبْحَثُ الثَّانِي: الرُؤيَةُ القُرآنِيَّةُ لِمَسأَلَةِ التَّارِيخِ

يُنَظِّرُ كتابُ الله (القرآن الكريم) في دروسه وعِبره لمسألة التاريخ وأحداثه ووقائعه وتحولاته، من حياة الأُمَم والمجتمعات، يقول -عز وجل: ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[البقرة: ١٣٤]، ويتحدَّثُ القرآنُ بشكلٍ دائم عن أنَّ للمجتمعاتِ والأُمَم آجالاً مُحَدَّدَةً: ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ**﴾[الأعراف: ٣٤].

كما يستنكرُ القرآنُ الرؤيةَ الاعتباطيَّةَ والعبثيَّةَ لحركةِ التَّاريخِ، ويُركز على أنَّ للتاريخِ قوانينه ونواميسه وسننه وقواعده الرصينة والمعيارية الثابتة، فيقول -عز وجل-: ﴿**فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلا**﴾[فاطر: ٤٣].

كما يُشدد القرآنُ على مسألةٍ تربويَّةٍ أخلاقيَّةٍ مهمة للغاية في مجال النواميس والضوابط التي تتحكم بأحداث التّاريخ، حيث يؤكّدُ على أنَّ مجتمعاتِ البشرِ هي التي تُحدد معالم مصائرها من خلال ما تمُارسه من أفعال حميدةٍ أو قبيحةٍ، وسلوكيات خيّرة وصالحة أو سيئة وشريرة. فبيضة القبان في الأمر هنا هي إرادة الفعل البشري، ووعي الإنسان، وإيمانه بقوانين الحياة وانفتاحه عليها في مواقع إيمانه بالعلة الأولى، وهي الله تعالى.

المَبْحَثُ الثَّالثُ:
تَفْسِيرُ تكَامُلِ التَّارِيخِ

هناكَ عِدةُ نظريات فكريةِ وفلسفيةِ تفسرُ لنا أحداثَ التاريخِ. سنحاول في هذا المَبحثِ تسليطَ الضَّوءِ على أهمّها، ونبين الفرق بين الرؤيةِ القرآنيَّةِ في تفسير تكاملِ التّاريخِ، وبقيَّةِ الرُؤى التي قدمتها بعض الأيديولوجيات المدرسيةِ الفكريَّةِ الأخرى، وفقًا للآتي:

أَوّلًا- الطَّرِيقَةُ الديَالكتيكيَّة أَو الآَلِيَّةُ:

تَعتبر هذه الرؤية أَنَّ الحياةَ كُلَّها تقوم على منطقِ الصّرَاعِ، والتاريخ جزءٌ من الحياةِ فهو بدوره يقوم على هذا المبدأ التناقضي، والصّراع بين النقائض، انطلاقًا من المرتكزات التالية:

١ .الطَّبيعة تتحرك بحركة دائميَّةٍ، لا تتوقف أبدًا لا سكونَ ولا توقفَ فيها.

٢ .تتكون الطبيعة من أجزاءٍ كثيرةٍ، وكل جزءٍ يتأَثَّرُ بالجزءِ الآخر ويؤثر فيه.

٣ .الحركةُ ناشئةٌ من صراعِ النَّقائض.

٤ .الصّراعُ بين النقائض داخل الظواهر، يزداد شدَّةً باستمرارٍ حتى يبلغ ذروته التكاملية. أي أنَّ التغيير الكَمّيّ يكبر ويتصاعد حتى يصلَ إلى حده الأقصى الممكن. والتغييرات الكمّيّة تتحوّل إلى تغييرات كيفيّة، وينتهي الصّراعُ لمصلحة القُوى الجديدة.

وعلى مستوى الطبيعة، تتحرك الحياة فيها بلا غايةٍ ولا هدفيةٍ، بل بطريقة آليَّة و"ميكانيزمات" آليَّة، ولا تتطلع لأيّ كمالٍ فيها.

والتَّاريخُ جزءٌ من الطَّبيعة، وهو لذلك يتحرك بلا غايةٍ ولا هدفٍ أعلى له، بل تُحركه عوامل ماديَّةٌ تنطلق من فكرةِ الصراع. وعلى الرّغم من أنَّ الفاعلَ الأساسيَّ في المسألةِ التاريخيَّةِ هو الإنسان، ولكن بحسب النظرية الماديَّةِ، أساس حركته هو مبدأ التناقض والصراع الآلي.

والعملُ الاجتماعيّ في أيّ مرحلةٍ من مراحل التَّاريخِ يخلقُ نوعًا خاصًّا من العلاقات الاقتصاديّة بين الأفراد وهذه العلاقات الاقتصاديّة تؤدّي إلى انبثاق مجموعةٍ من العلاقات الأخرى كالعلاقات السياسيَّةِ والقضائيَّةِ والعائليَّةِ ونظائرِها.

ثَانِيًا- النَّظَرِيَّةُ الإِنْسَانِيَّةُ أَو الفِطْرِيَّةُ:

في مواجهة النظرية الوظيفية الآلية لحركة التاريخ، تظهر أمامنا النظريَّةُ الإنسانيَّةُ أو الفطريَّةُ لتفسير هذا التّاريخ.

وتقومُ هذه النظريةُ على ضرورةِ منح الإنسانِ والقِيَمِ الإنسانيَّةِ المسؤولية الأكبر في البناء والتأسيس ووجود غاية جماليَّةٍ للإنسان من حركة الوجود.

والإنسان بحسب هذه الرؤية ينطوي على مجموعة من الغرائز المادّيّة التي يشترك فيها مع سائر الكائنات الحيوانيَّةِ، كما توجدُ فيه مجموعةٌ من الغرائز السَّامية التي تمُيّزه عن غيره من الحيوانات كالغريزة الدينيّة والغريزة

الأخلاقيّة وغريزة البحث عن الحقيقة والغريزة الجماليّة.

وبناءً على هذه الرؤيةِ تكون حركةُ المسيرةِ التّاريخيَّةِ متغيرةً ومتحوّلةً ومتحركةً نحو الكمال كضرورة.

ثَالِثًا- الفَرْقُ بَيْنَ الطَّرِيقَةِ الآلِيَّةِ وَالإِنْسَانِيَّةِ فِي تَفْسِيرِ الثَّوَرَاتِ:

تزعمُ الطَّريقةُ الآليَّةُ أنَّ تطورَ أدواتِ الإنتاجِ ووسائِله، ستؤدي إلى ظهور فوارق طبقية، مما سيفجر الثورات الاجتماعية، حيثُ إنَّ الطبقةَ المستغلَّةَ ستعمدُ إلى تأمين احتياجاتها المادّيَّةِ في ظل تلك الفوارق التي تأتي بالطبقةِ المُرفهةِ على حسابها.

أمَّا الطَّريقةُ الإنسانيَّةُ فهي تقدم نماذجَ من التاريخ عن تلكُم الثَّورات، نهضت بها الطَّبقاتُ الغنيَّةُ المرفَّهةُ.

نعم، إنَّ الثّوراتِ والنّهضاتِ لم تكن دومًا مرافقةٌ لتطوُّرِ وسائل الإنتاج، كالنَّهضات التي شهدها الشّرق والغرب خلال القرون الأخيرة من أجل مقارعة الاستبداد والطُّغيان.

ولمْ تكُنْ الفوضى الاجتماعيّة دومًا وليدةَ نقصِ القوانين الموجودة. بل كانت أحيانًا وليدةَ عدمِ تنفيذ القوانين النظريَّةِ المقبولة، فانطلقت الحركاتُ الاجتماعيَّةُ من أجل تطبيقِ هذه القوانين وتنفيذها عمليًّا، كثورات الشّيعةِ في التَّاريخِ الإسلاميّ[١].

١ - مرتضى مطهّري: أنسنة الحياة في الإسلام، ص٤٢٠-٤٢١.

المَبْحَثُ الرَّابِعُ: نَظَرِيَّتَانِ لِتَفْسِيرِ الإِنْسَانِ

الواضحُ أنَّ الاختلاف بين الرؤيتينِ السابقتين في تفسيرِ حركة التَّاريخِ وفعاليات الإنسان فيه، يعكس طبيعةَ وماهيَّةَ انطباعِ ومعرفةِ كل منهما للإنسان وتفسير معنى وجودِه وهويته وإدراكاته الكامنة فيه.

فالنَّظريةُ الماديَّةُ تنظر للإنسان ككائنٍ ماديّ مقيَّدٍ ومرتهن لحاجاته الماديَّةِ ومصالحه الاقتصادية، وهو مجبور على السيرِ في جهةٍ واحدةٍ تفرضُها عليه أدواتُ الإنتاجِ في تطوُّرِها، أمَّا ما يظهر عليه من مشاعر وأحاسيس ورغبات وانفعالات فهي ليست سوى انعكاساتٍ لظروفه الماديّة وبيئته الطبيعية والمجتمعية.

وأمَّا الرؤيةُ الأُخرَى "الإنسانية" فهي تنظرُ إلى الإنسانِ كموجودٍ مادي وروحيّ، يعكسُ في سلوكه وتصرفاته وانفعالاته ورغباته، دوافعه الروحيَّةَ والماديَّةَ، فهو يتمتع بقِيَم ومزايا روحيَّةٍ إلهيَّة، وزوده الله –تعالى- بفطرةٍ سليمة تحرضه وتدفعه للحق والوقوف مع الخير وقِيَم العدلِ والإنسانيَّة، كما أنَّه قادرٌ على التَّحكم بنفسِه، وفك قيودٍ يمكن أنْ تفرضَها عليه قوى الطَّبيعةِ وقوانين البيئةِ والنزعات الغريزية.

وبموجبِ هذه النظريَّةِ، فإنَّ القِيَمَ الإنسانيَّةَ الخيِّرَةَ هي قيمٌ أصيلةٌ متجذرةٌ في نفس الإنسان، رغم ما قد يعترضها من نزعات ويهيمن عليها

من دوافع شريرة. وهنا يأتي دورُ الإيمانِ بالله والوحي ليكونا بمثابةِ المُوجه والحامي.

ولهذا تكونُ القضيَّةُ الأساسيَّةُ هنا، هي أنَّ الإنسانَ يمكنه أنْ يتحركَ على طُرقِ الحقّ والخيرِ والصَّوابِ، وتكون له الحريةُ في الانتخاب والإرادة بعيدًا عن الجبريَّةِ والفعل الجبري.

الفَصْلُ العَاشِرُ

مَاهِيَّةُ الاِنْتِظَار

المَبْحَثُ الأَوَّلُ:
التَّفْسِيرُ القُرآنِيُّ لِحَرَكَةِ التَّارِيخِ

يُفسرُ القرآنُ التاريخَ على أساسِ أنَّه مَيدانٌ واسعٌ، طويلٌ وعريضٌ ومستمرٌ تتجسدُ فيه حركةُ الصراع والمواجهةِ التدافعيَّة بين جبهتي الحقّ والباطلِ، فالرسلُ والأنبياءُ والأئمَّةُ، ومن سار خلفهم من العلماءِ والنَّاسِ والمجتمعات، واهتدى بهديهم الذي هو هدي الإيمان بالله تعالى، يمُثلون جبهةَ الحقّ والإيمان، التي لابدَّ وأن تنتصرَ على جبهة الباطل التي يقفُ على رأسها الطغاةُ والجبابرةُ والمستبدون -ومن لفّ لفَّهم- في كل حركة التاريخ البشري.

والنصر الذي تحقق -ويتحقق وسيتحققُ- لجبهةِ الحقّ، لا يأتي من فراغ، بل دونَه عملٌ ومجاهدةٌ ومصابرةٌ، وهو خاضع لموازين قوى ونواميس وسنن وقواعد تاريخيَّة، يتعلم الناس من خلالها، وهذا ما يبينه لنا القرآن الكريم عندما يشير إلى الدور الحيوي «للمستضعفين»، ويؤكّد في الوقتِ ذاتِه على أنَّ الصراعَ المستمرَّ بين الفريقين منذُ فجرِ التاريخ، ذو هويَّةٍ معنويَّةٍ إنسانيَّةٍ لا ماديّة طبقيّة.

المَبْحَثُ الثَّاني:
خَصَائِصُ المُجْتَمَعِ «المَهْدَوِيّ» المِثَالِيّ

إنَّ الحديثَ عن قضيَّةِ الإمامِ المهديّ الذي يأتي كمُخلّصٍ للبشريَّةِ، يقودُنا للحديث عن الدَّورِ الاجتماعي والتأثيرات الفكرية والفلسفية لهذه القضية على صعيد حركة الإنسان والتاريخ، وهي تأتي لتُكَوّنَ لنا كاملَ الصورةِ لهذه القضيَّةِ المُكوِّنَة من مستويات سياسيَّةٍ وثقافيَّةٍ ومعرفيَّةٍ واجتماعيَّةٍ واقتصادية وتربوية وإنسانية طبيعية.

ويمكننا هنا الإشارةُ إلى أهم سماتِ وخصائص وعلامات تلك البُشرى الكُبرى التي ستكون هي المآل النهائي المنتظر للبشرية:

١. التفاؤلُ والتطلعُ الإيجابي التفاؤلي إلى مستقبل البشريَّة.

٢. الانتصارُ التَّامُّ لجبهةِ الإيمان والحقّ والتَّقوى والسَّلامِ على جبهةِ الظُّلمِ والباطل والاستكبار.

٣. تشكيلُ حكمٍ عالميّ وحكومةٍ عالميَّةٍ واحدةٍ تحت الرايةِ المهدويَّةِ.

٤. إعمارُ الأرض وعمرانها.

٥. وصولُ النَّاسِ والبشرِ إلى مرحلةِ النُّضجِ والبلوغِ والتَّكاملِ العقلي والروحي.

٦. الاستثمارُ الفاعلُ في ثرواتِ الأرضِ ومواردِها بشكلٍ كاملٍ وعادلٍ.

٧. قيامُ العدلِ والمساواة الكاملة بين الناس في توزيع الثروات.

٨. استئصال كافة أنواع وأشكال الموبقات والشرور والفساد، من الزنا والسرقة والقتل وغيرها.
٩. الانتهاءُ الكاملُ من الحروب وأعمال القتل، وسيادة أسس السلام والأمان العالميين.
١٠. التوازن الفاعل بين الإنسان والطَّبيعةِ.

المَبْحَثُ الثالث:
أَنْوَاعُ الانْتِظَارِ

هناك نمطان للفرجِ والانتظارِ:
الأَوَّلُ: انتظارُ التخريب الهدَّامِ الباعث على التقاعُسِ والإحباطِ واليأسِ والخمولِ والتكاسلِ.
الثَّاني: الانتظارُ المُثمِرُ البَنَّاءُ، يدفعُ الإنسانَ للعمل والثبات، ويمنحه القوةَ والإرادةَ للحضور والتحرك الفاعل في حياته.

أَوَّلًا- الانْتِظَارُ المُخَرِّبُ:

ظهرت في تاريخنا بعض الفئات ممن آمنوا بالانتظار السلبيّ، وهو في العمق والمضمون العملي، انتظارٌ هدَّامٌ وغيرُ بناءٍ.
يقوم هذا اللون من الإيمان الانتظاري على قاعدةِ أنَّ أفضلَ وسيلةٍ

وأسرعَ طريقةٍ لتسريع ظهورِ الإمامِ المهدي المنتظر، تكمُنُ في إشاعةِ الفوضى والخراب والفساد، وتفجير الصراعات والطغيان، وغيرها من قبائح الأفعال والأعمال. إنَّ هؤلاء ينظرون إلى المُصلحين والمجاهدين والآمرين بالمعروف والنَّاهين عن المُنكر بعين الحقدِ والعداء، لأنَّهم يعملون على تأخير ظهور المهديّ. وأصحاب هذا التصوُّرِ -إن لم يكونوا هم من زمرة العاصين- ينظرون إلى أصحاب المعاصي بعين الارتياح والرّضى، لأنَّهم يُمهّدون لظهور القائم المنتظر.

إنَّ هذا اللونَ من الفَهم لمسألةِ ظهور المهديّ وهذا النوع من الانتظار للفرج لا يرتبط على الإطلاق بالموازين الإسلاميَّةِ والقرآنيَّة، إذ إنَّه يؤدّي إلى التعمُّدِ في تعطيل الحدود والأحكام الإسلاميّة، بل إلى نوعٍ من التحلُّل وإطلاق العنان للغرائز[١].

ثَانِيًا- الانْتِظَارُ البَنَّاءُ:

تتحدث كثيرٌ من الآيات القرآنيَّةِ فيما يتعلَّقُ بالقضيَّةِ المهدويَّةِ، إلى ظهور المهديّ، هو حلقة من حلقات الكفاح والجهاد بين أهل الحقّ وأهل الباطل، وأنَّ هذا النّضال لابدَّ وأن يفضي إلى نصرٍ حاسمٍ لقوى الحق والخير والسلام.

---

١ - مرتضى مطهّري: أنسنة الحياة في الإسلام, ص٤٣١-٤٣٣.

يقول اللهُ -عز وجل-: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[النور: ٥٥].

وأنَّ الظُّهورَ الموعودَ للمهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف هو تحققٌ فعليٌّ لمنَّةِ الله على عباده المستضعفين ووسيلة لاستخلافهم في الأرض ووراثتهم لها، يقول عز وجل: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[]القصص: ٥-٦].

كما أنَّ ظهورَه تحققٌ للوعدِ الإلهي بنصرِ المؤمنين والصَّالحين والمتَّقين، وهو وعدٌ موجودٌ ومخزونٌ في الكتب السماويّة كافةً: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[الأنبياء: ١٠٥].

كما أنَّ هناك حديثٌ عن الرسول الكريم يقول فيه: «... يملأ الله به الأرض قسطًا وعدلاً كما مُلئت جورًا وظلمًا»[١].

ويروي الشيخ الصدوق عن الإمام الصادق عليه السلام: "يا منصور، إنَّ هذا الأمر لا يأتيكم إلّا بعد إياس، لا والله لا يأتيكم حتى تميّزوا، والله لا

١ - محمد بن بابويه (الشيخ الصدوق): كمال الدين وتمام النعمة، ص٢٦٤.

يأتيكم حتى تمُحّصّوا، ولا والله لا يأتيكم حتّى يشقى من شقي ويسعد من سَعد»[١].

إنَّ القَضِيَّةَ المَهدَوِيَّةَ نورٌ يتطلعُ إليه كلُّ الناسِ المؤمنين بخط العدلِ في حركة الحياةِ، بصرف النَّظر عن أديانهم ومعتقداتِهم وقناعاتِهم، وهو يجسدُ فكرةَ الخلاصِ بأكملِ وأرفع معانيها التي تقوم على تخليص البشرية من الفساد والظلم، وإقامة مجتمع العدل والحق الإنساني لكل الناس والمجتمعات، بما يجسد غايةَ وهدفَ كل الرسالات والنبوات في كل حركة التاريخ البشري منذ فجر الخليقة إلى أنْ يرثَ اللهُ تعالى -من خلال الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف - الأرضَ ومنْ عليها، وماْ عليها.

١ - محمد بن بابويه (الشيخ الصدوق): كمال الدين وتمام النعمة، ص٣٤٦.

المَصَادِرُ وَالمَرَاجِعُ

■ أبو محمّد بن عاشور الثعلبي: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، لبنان/ بيروت، ٢٠٠٢م، لاط.

■ أحمد بن حجر (الهيثمي المكي): الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، مكتبة القاهرة، مصر/القاهرة، ١٣٨٥هـ.ق - ١٩٦٥م، ط٢.

■ أبو جعفر أحمد (المحب الطبري): الرياض النضرة في مناقب العشرة، دار الكتب العلميّة، لبنان - بيروت، لات، لاط.

■ أحمد بن يحيى البلاذري: أنساب الأشراف، تحقيق الدكتور محمد حميد الله، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالاشتراك مع دار المعارف بمصر، مصر، ١٩٥٩م، لاط.

■ حسن بن يوسف الحلي: كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، تحقيق: آية الله حسن زاده الآملي، مؤسّسة نشر الإسلاميّ، إيران/ قم،١٤١٧هـ.ق، ط٧.

■ حسين بن محمد (الراغب الأصفهاني): المفردات في غريب القرآن، دفتر نشر الكتاب، لا.م، ١٤٠٤هـ.ق، ط٢.

■ جلال الدين السيوطي: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار المعرفة، لبنان/بيروت، لا.ت، لا.ط.

■ سليمان بن إبراهيم (القُندوزي): ينابيع المودة لذوي القربى، تحقيق: السيد علي جمال أشرف الحسيني، دار الأسوة للطباعة والنشر، إيران/قم، ١٤١٦هـ.ق، ط١.

■ عبد الحميد بن هبة الله (ابن أبي الحديد المعتزلي): شرح نهج البلاغة، تحقيق وتصحيح: محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر مكتبة آية الله المرعشي النجفي، إيران/قم، ١٤٠٤هـ.ق، دار إحياء الكتب العربية، لام، ١٩٥٩م، لاط.

■ عبد الحسين الأميني: الغدير، دار الكتاب العربي، لبنان/بيروت، ١٩٧٧، ط٤.

■ عبد الله بن مسلم (ابن قتيبة الدينوري): الإمامة والسياسة، تحقيق: طه محمد الزيني، مؤسّسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، لام، لات، لاط.

■ عبد الملك بن هشام الحميري: السيرة النبوية، تحقيق وضبط وتعليق: محمد عبد الحميد، مكتبة محمد علي حجيج، مصر/القاهرة، ١٩٦٣م، لاط.

■ علي مقلد: نظام الحكم في الإسلام أو النبوّة والإمامة عند نصير الدين الطوسي، دار الأضواء، لبنان/بيروت، ١٤٠٦هـ.ق، لاط.

■ علي بن الحسين (السيد المرتضى): الشافي في الإمامة، مؤسّسة إسماعيليان، إيران/قم، ١٤١٠، ط٢.

■ علي بن أبي الكرم (ابن الأثير): الكامل في التاريخ، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، لبنان/بيروت، ١٣٨٦هـ.ق - ١٩٦٦م، لاط.

■ مرتضى مطهّري: سلسة أصول الدين-الإمامة، ترجمة: جواد كسّار، دار الحوراء-مؤسّسة أم القرى، لام، لات، لاط.

■ محمد بن النعمان (الشيخ المفيد): الإرشاد، تحقيق: مؤسّسة آل البيت لإحياء التراث، دار المفيد، لبنان/بيروت، ١٩٩٣م، ط١.

■ محمد بن المكرم (ابن منظور): لسان العرب، نشر أدب الحوزة، إيران/قم، ١٤٠٥هـ.ق، لاط.

■ مسلم بن الحجاج النيسابوري: الجامع الصحيح، (صحيح مسلم)، دار الفكر، لبنان/بيروت، لات، لاط.

■ محمد بن جرير الطبري: دلائل الامامة، تحقيق: قسم الدراسات الإسلاميّة، مؤسّسة البعثة، مركز الطباعة والنشر في مؤسّسة البعثة، إيران/قم المشرّفة، ١٤١٣هـ.ق، ط١.

■ محمد بن علي (ابن شهر آشوب): مناقب آل أبي طالب، تصحيح ومقابلة: لجنة من أساتذة النجف، المكتبة الحيدرية، العراق/النجف الأشرف، ١٩٥٦م، لاط.

■ محمد بن علي (الشيخ الصدوق): كمال الدين وتمام النعمة، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسّسة النشر الإسلاميّ، إيران/قم، ١٤٠٥هـ.ق، لا.ط.

■ محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرفة، إيران/قم، ١٤١٧هـ.ق، ط٥.

■ محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)، مراجعة وتصحيح وضبط: نخبة من العلماء الأجلاء، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان/بيروت، ١٤٠٣هـ.ق - ١٩٨٣م، ط٤.

■ محمد بن علي بن بابويه الصدوق: الخصال، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسّسة النشر الإسلاميّ، إيران/قم، ١٤٠٣هـ.ق، لاط.

■ محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان/بيروت، لام، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، لاط.

■ مرتضى مطهّري: سلسلة تراث وآثار الشهيد مرتضى مطهّري-أنسنة الحياة في الإسلام، دار الإرشاد، لبنان/بيروت، ٢٠٠٩م، ط١.

الفهرس

المقدمة ٥

الفَصْلُ الأَوَّلُ: أَهَمِّيَّةُ قَضِيَّةِ الإِمَامَة ٧
الإِمَامَةُ فِيْ مَعَانِيْهَا وَمَرَاتِبِهَا

٩ | المَبْحَثُ الأَوَّلُ: الإِمَامَةُ مَا بَيْنَ إِفْرَاطٍ وَتَفْرِيْطٍ

١١ | المَبْحَثُ الثَّانِي: سِيرَةُ الإِمَامِ عَلِيٍّ عليه السلام كَنَمُوْذَجٍ عَمَلِيٍّ مُجَسِّدٍ لِلوَحْدَةِ

١٦ | المَبْحَثُ الثَّالِثُ: مَعَانِي الإِمَامَةِ ـ القِيَادَة السِيَاسِيَّة

الفَصْلُ الثَّانِي: مَعَانِي الإِمَامَةِ وَمَرَاتِبُها ٢٥
المَرْجِعِيَّةُ الدِّيْنِيَّةُ المَعْصُوْمَةُ

٢٧ | المَبْحَثُ الأَوَّلُ: الإِمَامَةُ بِمَعْنَى المَرْجِعِيَّةِ الدِّيْنِيَّةِ

٢٩ | المَبْحَثُ الثَّانِي: حَيَاةُ النَّبِيِّ وَإِبْلَاغُ جَمِيْعِ أَحْكَامِ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ

٣٢ | المَبْحَثُ الثَّالِثُ: عَصْمَةُ الأَئِمَّةِ عليهم السلام عَلَىْ صَعِيدِ المَرْجِعِيَّةِ الدِّيْنِيَّةِ

الفَصْلُ الثَّالِثُ: مَعَانِي الإِمَامَةِ وَمَرَاتِبُها ٣٧
الوِلَايَةُ الإِلَهِيَّةُ

٣٩ | المَبْحَثُ الأَوَّلُ: عِنْدَمَا تَأْتِي الإِمَامَةُ بِمَعْنَى الوِلَايَةِ الإِلَهِيَّة
٤١ | المَبْحَثُ الثَّانِي: الوِلَايَةُ الإِلَهِيَّةِ
٤٤ | المَبْحَثُ الثَّالِثُ: فِي مَعْنَى التَّقَرُّبِ إِلَىْ اللهِ وَارتِبَاطِهِ بِـــ"الوِلَايَةِ الإِلَهِيَّةِ"

الفَصْلُ الرَّابِعُ: ٤٧
الاِسْتِدْلَالُ العَقْلِيُّ عَلَىْ قَضِيَّةِ الإِمَامَةِ

٤٩ | المَبْحَثُ الأَوَّلُ: دليلُ اللُّطفِ
٥٣ | المَبْحَثُ الثَّانِي: وُجُوبُ التَّعْيِّينِ بِالنَّصِّ

الفَصْلُ الخَامِسُ: ٥٧
عِصْمَةُ الإِمَامِ

٥٩ | المَبْحَثُ الأَوَّلُ: حَقِيْقَةُ العِصْمَةِ وَمَصْدَرُهَا

٦١ | المَبحثُ الثّاني: مَراتبُ العِصْمة ودَرَجاتها

الفَصْلُ السَّادِسُ: ٦٣
الإِمَامَةُ فِيْ القُرْآنِ

٦٦ | المَبْحَثُ الأَوَّلُ: دَلِيلُ الإِمَامَةِ فِيْ القُرْآنِ الكَرِيمِ

٦٧ | المَبْحَثُ الثَّانِي: الاِسْتِدْلَالُ القُرآنِيُّ عَلَىْ مَسْأَلَةِ الإِمَامَةِ

٧٠ | المَبْحَثُ الثَّالِثُ: الإِمَامَةُ فِيْ القُرآنِ

٧٧ | المَبْحَثُ الرَّابِعُ: الإِمَامَةُ فِيْ القُرآنِ

الفَصْلُ السَّابِعُ: الإِمَامَةُ فِيْ القُرْآنِ ٨٥
الإِمَامَةُ فِيْ المَفْهُومِ الشّيْعِيّ

٨٧ | المَبْحَثُ الأَوَّلُ: الإِمَامَةُ فِيْ الوَعْيِّ الشِّيْعِيّ عَلَىْ ضَوءِ الآيَاتِ القُرْآنِيَّةِ

٨٩ | المَبْحَثُ الثَّانِي: الإِمَامَةُ فِيْ مَنْطِقِ القُرْآنِ

القَصْلُ الثَّامِنُ: الإِمَامَةُ فِيْ الحَدِيثِ ٩٣
ضَرُورَةُ الإِمَامَةِ وَصِفَاتُ الإِمَامِ

٩٥ | المَبْحَثُ الأَوَّلُ: مَاهِيَّةُ الإِنْسَانِ الأَوَّلِ فِيْ النَّظْرَةِ المَادِّيَّةِ
٩٦ | المَبْحَثُ الثَّانِي: ماهِيَّةُ الإِنْسَانِ الأَوَّلِ فِيْ القُرْآنِ الكَرِيْمِ

الفَصْلُ التَّاسِعُ: ١٠٩
الإِمَامُ المَهْدِيُّ عجل الله تعالى فرجه الشريف وَتَغْيِيرُ العَالَمُ

١١٢ | المَبْحَثُ الأَوَّلُ: النَّظَرِيَّاتُ المُفَسِّرَةُ لِأَحْدَاثِ التَّارِيخِ
١١٣ | المَبْحَثُ الثَّانِي: الرُؤيَةُ القُرَآنِيَّةُ لِمَسأَلَةِ التَّارِيخِ
١١٤ | المَبْحَثُ : تَفْسِيرُ تكَامُلِ التَّارِيخِ

١١٧ | المَبْحَثُ الرَّابِعُ: نَظَرِيَّتَانِ لِتَفسِيرِ الإِنْسَانِ

القَصْلُ العَاشِرُ: ١١٩
مَاهِيَّةُ الانْتِظَارِ

١٢١ | المَبْحَثُ الأَوَّلُ: التَّفْسِيرُ القُرآنِيُّ لِحَرَكَةِ التَّارِيخِ

١٢٢ | المَبْحَثُ الثَّانِي: خَصَائِصُ المُجْتَمَعِ «المَهْدَوِيّ» المِثَالِيّ

١٢٣ | المَبْحَثُ الثَّالِثُ: أَنْوَاعُ الانْتِظَارِ

المَصَادِرُ وَالمرَاجِعُ ١٢٧

مركز براثا للدراسات والبحوث

مركز بحثي مستقل غير ربحي، مقره في بيروت وبغداد. ويهدف لفتح المجالات العلمية والأكاديمية الواسعة، أمام الباحثين والمتخصصين؛ للقيام ببحوث تسعى إلى فهم واقع الإنسان والإنسانية، من خلال التركيز على دراسة الميادين الفلسفية، والاجتماعية، والإنسانية المتنوعة، التي تشكّل في مجموعها الحراك الاجتماعي والانساني الكبير الحاصل في العالم، وخصوصا في بلادنا العربية والإسلامية، ورصد الظواهر والتحديات الفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية، والنفسية المختلفة، التي يمكن أن يواجهها الفرد والمجتمع، ومحاولة فهم ومدارسة الأسس الفلسفية والإجتماعية والدينية التأصيلية بموضوعية وجِدة؛ سعيًا للوصول إلى حلول لها؛ من أجل السمو بالإنسان وتقدّمه في أبعاده الإنسانية المختلفة.

في هذا الكتاب

تُعدُّ مَسـألَةُ الإِمَامَةِ مِن أَهم المَباحثِ الفكرية والعَقَدِيَّةِ التي تم تَناوَلُها في تاريخِ الفكرِ الإسـلامي، ومنـذُ بدايـات الدعوة الإسـلاميَّة، كانت الفكـرةُ مثارَ جدلٍ وأخـذ ورد بين المسلمين.

في هـذا الكتابِ، حاولنا تقديمَ طرحٍ فكريّ تاريخيّ عن الإمامة، وتناولنا أسـبابَ الخلافِ التَّاريخِيّ حولها، والذي لا يعود لأسـبابٍ سياسيَّةٍ محضة، مع أنَّ الاتفاقَ حولها في معنى الحُكمِ السياسيّ قائمٌ لدى الفريقين؛ وإنمَّا جاء الخلافُ في مُقتضياتِ التعيين والتنصيب. كـما قُمنا بتأصيلِ معناها في البُعد القرآني والروائي، من حيثُ إنَّها اسـتمرارٌ وامتدادٌ للنُّبوةِ في أهدافها وتطلعاتها وقِيمها، ومتابعة مسؤوليَّاتها -في كل الأزمان- التي أناطها بها الوحي وتعاليم السـماء، بحيث إنَّ الـضرورةَ والحكمةَ واللطفَ الإلهي تقتـضي كلها أنْ لا يخلو عـصرٌ ولا زمانٌ من إمامٍ مُفترَضِ الطاعة، منَصَّب ومعـين من الله عز وجل. فلكل قوم نبيٌّ وإمامٌ، وإنمَّا لا وحي بعد النبوة. يقول تعالى: ﴿... إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[الرعد: ٧].والأرض لا تبقى من دونِ إمامٍ إلى أن يرث الله الأرض وما عليها ومن عليها.

- الدراسة لا تعبر بالضرورة عن رأي المركز

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد